جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

من حديث النبى ﷺ عن نفسه

دراسة بلاغية فى صحيح مسلم

الدكتور
محمد أحمد أبو زيد
أستاذ البلاغة والنقد المساعد
بكلية اللغة العربية بجرجا

العدد الخامس عشر
للعام ١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

الجزء الثالث

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين سبيله إلى يوم الدين وبعد ،،،

فإن التعرف على شخصيته ﷺ يمكن أن يؤخذ من ثلاث جهات ، يأتى فى مقدمتها القرآن الكريم ؛ لأنه تنزيل رب العالمين ، الذى خلق محمداً بإرادته ، وأحاطه برعايته وعنايته ثم بيانه ﷺ عن نفسه ، والذى جاءنا فى سنته المتواترة ، وهو أدرى بنفسه الشريفة منا بعد مولاه ، وأخيراً يأتى حديث أصحابه عنه لمعايشتهم له ، وأخذهم عنه .

وما أجمل حديثه ﷺ عن نفسه ؛ لأنه يعرف قدره حق المعرفة ، وحديثه ﷺ عن نفسه مأخوذ من حديث القرآن عنه ؛ لأن القرآن عظمه وكرمه ، وبين خصائصه فى قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم ٤] .

وعندما يتحدث ﷺ عن نفسه ، فهو يتحدث حديث الصادق الذى لا يكذب ، حديثاً يبين مكانته الحقيقية ، وهذا البحث يعطينا صورة لشخصيته ﷺ من خلال بيانه الصادر عنه ، وهو بعنوان : (من حديث النبى ﷺ عن نفسه دراسة بلاغية فى صحيح مسلم) وقد اخترت صحيح مسلم لأنه من أمهات الكتب التى جمعت فأوعت ، وهو أحد الكتب الموثقة ، وقد شهد بذلك المتخصصون من علماء الأمة ، كما أنه يحتوى مادة نصية وفيرة تكفى لأن تقوم الدراسة عليها ؛ وحديثه ﷺ عن نفسه جاء متعدد الجوانب ؛ لذا رأيت ضبطها فى عناصر أساسية تحوى بداخلها ما يمكن أن يشمله كل عنصر ، وذلك فى تسلسل منطقى يسهم فى بيان الغرض ، وقامت الدراسة على جمع الأحاديث المعنية ووضعها ضمن العناصر الخاصة بها ، وتحليلها بلاغيا بما يكشف عن وجه الدقة والجمال فيها ، وكيف أسهمت الكلمات والعبارات والصور المتنوعة فى بيان مراده ﷺ ، وجاء البحث فى خطته بعد المقدمة فى سبعة مباحث على النحو التالى:

المبحث الأول: حديثه ﷺ عن نسبه ، واصطفاء الله لأصوله .

المبحث الثانى: حديثه ﷺ عن مولده ، وأسمائه .

المبحث الثالث: حديثه ﷺ عن بشريته .

المبحث الرابع: حديثه ﷺ عن صلته بربه .

المبحث الخامس: حديثه ﷺ عن صلته بأمته .

المبحث السادس: حديثه ﷺ عن مكانته بين الأنبياء .

المبحث السابع: حديثه ﷺ عما اختصه الله به ، وحيازته للأوائل .

ثم جاءت الخاتمة التى تضمنت أهم النتائج ، ثم **الفهارس** المتنوعة .

وبعد: فهذا البحث لم يأت إضاء لهوى ، ولا إشباعاً لرغبة ، بل جاء طبقا للنصوص الثابتة عنه ﷺ التى لا تأويل فيها ، ولا إفساد لمعانيها ، والتى لا تتعارض مع المنطق السليم، وأصول التفكير الناضج الخصيب ، مما فيه رد على من لم يحفظ عنه ﷺ إلا ما أحيطت به شخصيته من هالة التقديس ، ظانين بذلك أنهم يرفعون من قدره ، مع أن الوضع الذى رضيه الله له يجعله فى أعلى مراتب التقدير، ومن الله وحده أستمد المعونة والتوفيق .

د/ محمد أحمد أبو زيد حسن

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

فى كلية اللغة العربية بجرجا

المبحث الأول

حديثه ﷺ عن نسبه ، واصطفاء الله لأصوله

النسب الأكرم الذى شرف الناس بوجوده هو محمد بن عبد الله[١] ابن عبد المطلب[٢] ابن هاشم[٣] بن قصى[٤] بن كلاب[١]

---

(١) من زوجه آمنة بنت وهب من بنى عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر، ويجتمع نسب أبويه الشريفين فى كلاب،وهو نسب شريف عريق عظيم لم يجتمع لأحد من قبل ولا من بعد، وعبد الله هو أصغر أولاد عبد المطلب ، وأحبهم إليه ، والذبيح الثانى المفدى بمائة من الإبل ، فيه الوسامة ، وفيه الحياء ، ولم يكن له من الأولاد سوى سيدنا محمد ﷺ ؛ لأنه مات شابا ولم يعمر .

(٢) من زوجه فاطمة بنت عمرو من بنى مخزوم ، واسم عبد المطلب: شيبة الحمد ، وعبد المطلب لقبه ، كان سيد قريش وشريفها وحليمها ، وكان على ملة إبراهيم عليه السلام ، ويعتقد بالبعث والنشور والجزاء يوم القيامة وهو الذى منع وأد البنات ، وكان له عشرة ذكور وست إناث ، فالذكور الحارث وهو أكبرهم ، وعبد الله ، وحمزة ، والعباس ، وأبو طالب ، وأبو لهب ، والزبير وضرار والغيداق والمقوم ، ولم يدرك رسالته منهم إلا حمزة والعباس وأبو لهب ، وأسلم حمزة واستشهد فى أحد ، وكذلك أسلم العباس ، أما أبو لهب فمات كافرا ، والإناث صفية وقد أسلمت باتفاق ودفنت بالمدينة ، وعاتكة وأروى واختلف فى إسلامهن ، وأم حكيم البيضاء ، وأميمة وبره وهؤلاء لم يسلمن .

(٣) من زوجه سلمى بنت عمرو من بنى النجار من الخزرج ، وكان يقال لهاشم سيد البطحاء ، وكان فى الجدب يهشم الثريد لقومه ، ويصنع الطعام للحجاج ، وكان يحث قومه على مكارم الأخلاق ، ولم يكن له ولد غير عبد المطلب .

(٤) من زوجه فاطمة بنت سعد ، وهى يمانية من أزد شنوءة واسمه زيد: ويقال له مجمع ؛ لأنه جمع قبائل قريش بعد تفرقها ، وأنزلها مكة وضواحيها ، وتولى أمر البيت الحرام وأمر مكة ، وحاز مفاخر الشرف كلها ، وكانت بيده السقاية والرفادة والحجابة واللواء والندوة ، وهو أول من أمر بإيقاد النار فى المزدلفة ليراها من دفع من عرفات .

ابن مرة[٢] بن مالك بن كعب[٣] بن لـؤى [٤] بـن غالـب [٥] ابـن فهـر [٦] بـن مالك [٧]ابن النضر[٨] ، بن كنانة[٩] بن خزيمـة[١٠] بـن مدركـة[١١] بـن إليـاس [١٢] بن نزار [١٣] بن مضر[١٤] ابن معد [١٥] بن عـدنان [١٦] ، هـذا هـو النسـب

---

(١) واسمه حكيم وكنيته أبو زرعة ولقب بكلاب لحبه للصيد ، أو لأنه كان يصطاد الكلاب ، وهـو أول من أهدى إلى الكعبة سيفين محليين بالذهب وجعلهما فى خزانتها .

(٢) من زوجه هند بنت سرير من بنى فهر .

(٣) من زوجه وحشية بنت شيبان من فهر أيضا ، وسمى كعب بهذا الاسم لعلو قدره عند قريش ، وبشر قومه بمبعث النبى ﷺ وأنه فى ولده ، وكان بينه وبين مبعثه ﷺ ٥٦٠ سنة ، وهو أول من قال: أما بعد

(٤) من زوجه أم كعب مارية بنت كعب من قضاعة .

(٥) من زوجه أم لؤى سلمى بنت عمرو الخزاعى .

(٦) من زوجه أم غالب ليلى بنت سعد من هذيل ، وفهر هو قريش فى قول الأكثرين .

(٧) من زوجه جندله بنت الحرث من جرهم

(٨) من زوجه عاتكة بنت عدوان من قيس عيلان، ولقب بالنضر لنضارة وجهة وجماله، وكنيتـه أبو مخلد .

(٩) من زوجه برة بنت مر بن إد ، وسمى كنانة لأنه كان سترا على قومه ، وكان عظـيم القـدر والمنزلة ، تقصده العرب لعلمه وفضله .

(١٠) تصغير خزمة من زوجه عوانه بنت سعد من قيس عيلان .

(١١) من زوجه سلمى بنت أسلم من قضاعة واسمه عمرو ، وكنيته أبو هذيل ، لقب بابن مدركـة لأنه أدرك أرنبا عجز عنه رفقاؤه .

(١٢) من زوجه خندف المضروب بها المثل فى الشرف والمنعة،وكنيته أبو عمرو وهو أول من أهدى البدن للبيت .

(١٣) من زوجه سودة بنت عك .

(١٣) من زوجه الرباب بنت جندة .

(١٤) من زوجة معانة بنت جوشم من جرهم .

(١٥) فيض القـدير ٣٦/٣ حـديث رقـم ٢٢٨٢ .

المتفق على صحته من علماء التاريخ والمحدثين، ويمتد نسبه بعد ذلك إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام [١] .

والنبى ﷺ فى بيانه لنسبه الشريف ، نجده يذكر نسبه إلى والده تارة ، وإلى جده تارة أخرى وجاء ذلك مراعيا مقتضى الحال ، ففى الحديث (أَنَا وَاللهِ مُحَمّد بنُ عَبْدِ اللهِ) [٢] فاستهل بيانه بهذا الضمير (أنا) الدال على ذاته الشريفة ﷺ ، فهو اسم مكنى للمتكلم وحده ، ولا تثنية له من لفظه [٣] ، ويستوى فيه المذكر والمؤنث ، ثم جاء بهذا التأكيد واختار من أدواته القسم بلفظ الجلالة ، الذى لا يكون القسم به إلا فى الأمور المهمة ، وقد علمنا هذا الأدب مولانا منزل القرآن [٤] ، وقد سُبق بواو القسم التى اختصت بجر الظاهر ، والتأكيد هنا لم يأت عبثاً ، وانتسابه لأبيه جاء مطابقاً لمقتضى الحال أيضاً ؛ فالحديث جاء عند كتابة صلح الحديبية ، عندما اعترض أهل مكة على كتابة (محمد رسول الله) وقالوا: لو علمنا أنك رسول الله لم نمنعك ولبايعناك ، ولكن اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله ، فقال ﷺ : أنا والله محمد بن عبد الله ، وأنا والله رسول الله ... فقد أراد ﷺ أن يذكرهم بما

---

(١) أما نسبه من جهة أمه ، فأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة ، وهى من أفضل نساء قريش نسباً ، وأكرمهن ذكرا ، ولا نعلم أنه كان لآمنة أخ حتى يكون خالا له ﷺ ، أما جدته لأمه فهى برّة بنت عبد العزى . [يراجع فى تراجم من سبق: رسالة النسب الطاهر الشريف لمحمد الكردى ، ص٨ وما بعدها ط أولى ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م ، ط الحلبى ، محمد رسول الله خيرة الله من خلقه لعبد المعطى إسماعيل عبادة ص١١ وما بعدها ط م الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٦٨م .

(٢) الجمع بين الصحيحين ، محمد فتوح الحميدى ، تح د/ على حسين ٣٢٧/١ ، دار ابن حزم بيروت .

(٣) لأنه لا يجوز أن يقال: أنا وأنا لرجل آخر ، وهو ضمير مبنى على الفتح للفرق بينه وبين أنْ الناصبة للفعل ، زيدت عليها الألف لبيان الحركة .

(٤) حيث قال ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ ﴾ وخير من يطبق ذلك سيدنا رسول الله ﷺ .

عرفوه عنه ، وكأنه يقول: أنا محمد بن عبد الله الذى عرفتموه أربعين عاما قبل بعثته بالصدق ، فلم يكذب عليكم ، فكيف يكذب على الله ؟ وليلفتنا ﷺ إلى أن كتابة العهود والمواثيق تقتضى الدقة بذكر الاسم والصفة . أما فى غزوة حنين فنراه يقول (أَنَا النّبِىُّ لاَ كَذِبْ أَنَا بنُ عَبْدِ المُطّلِبْ) [١] ، نلحظ أنه ﷺ أعلم نفسه بأمرين النبوة المعصومة والنسب الطاهر ؛ ليقوى قلب من تمكن الشيطان منه فاستزله وانهزم ، ولذلك نزل ﷺ بالأرض ؛ لأن النزول غاية ما يكون من الطمأنينة والثقة بالله تعالى ، ليقتدى به المؤمنون فيثبتوا [٢] ، وقوله ﷺ (أنا النبى) من قصر الموصوف على الصفة ، وهو يفيد أن أمر النبوة إليه قد انتهى ، وبه قد ختم ، وفيه تعريض بالمكذبين صرح به فى قوله (لا كذب) ، وجاء التعبير بالجملة الخبرية لأمور غير فائدة الخبر ولازمه ، والقصد به هنا إظهار شرفه ، وكونه عند ربه بمكان علىّ حيث خصه بأنه النبى [٣] ، أما نسبته إلى جده (عبد المطلب) هنا ، فلأن شهرته بجده أكثر ، لأن أباه توفى شابا فى حياة أبيه ، وقيل: لأنه كان قد اشتهر بين الناس أنه يخرج من ذرية عبد المطلب رجل يدعو إلى الله ، ويهدى الله الخلق على يديه ، ويكون خاتم الأنبياء ، فانتسب إليه ليتذكر ذلك من كان يعرفه [٤] ، وقدم أمر النبوة لعلو شأنها ، ولأنها كانت محل الجدل ، كما أنها سبب الطمأنينة والثبات ، فهى الصلة بينه تعالى وبين ذوى العقول الصحيحة من عباده ، هكذا أخبرنا ﷺ عن نسبه ، وراعى فيه مقتضى الحال ؛ لأنه يعرف مقامات الكلام ، ومواقع الأساليب فى خواص المناسبات ، فلما كان فى صلح الحديبية بين أهله من

---

(١) صحيح مسلم ٩٣/٢ كتاب الجهاد والسير ، باب: فى غزوة حنين .

(٢) شرح ابن بطال ٢٥٩/٩ .

(٣) فيض القدير ٣٩/٣ .

(٤) ينظر: فتح البارى ١٢٦/١٢ ، وشرح ابن بطال ٢٥٩/٩ .

قريش وهم يعرفون نسبه ، جاء بنسبه إلى والده ، أما فى غـزوة حنـين فالمقـام متسع بين من يعرف نسبه ، ومن يعرف شهرته ، فجاء بشهرته للعموم .

أما عن اصطفاء الله لأصوله فقد أوضح ﷺ فى بيانه الشريف أن الله عـز وجل أولاه عناية خاصة ، حيث الاصطفاء المتواصل لأصول آبائـه ﷺ وأجـداده ، وأنه ﷺ كان نهاية هذا الاصطفاء وغايته ، وهو ما يفيد أنـه ﷺ طـاهر مطهـر ، ومصفى من حيث المنشأ والانحدار فى الأصلاب ، فعن (وَاثِلَةَ بْـنَ الأَسْـقَعِ قـال سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِى هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِى مِنْ بَنِى هَاشِمٍ) [١] فالحـديث جاء فى أسلوب خبرى مؤكد ، ضم أربع جمل دلت مع اختصارها على علو نسـبه ﷺ، وسمو قدره ، والأسلوب الخبرى هنا من الوسائل التى يتقرر بها الحكم، وهـو أنسب الأساليب التى تحتل فيه الغاية التعليمية الاهتمام الأول ، وهو الأنسب كـذلك لما تتطلبه هذه الغاية من الإيجاز الذى يتناسب مع النص الشـفاهى ؛ لأن الإيجـاز والإحكام من أهم عوامل ثبات النص فى الأذهان .

وقد صُدِّر الحديث بـ " إن " التى تفيد التوكيـد مبـرزة أهميـة القضـية لارتباطها بفعل الله وإرادته ، أو أن التأكيد جاء لأن الحديث عام موجه إلى الخلـق كافة ، والناس منهم المؤمن ، ومنهم الجاحد الذى يقول ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [٢] فلكى يقطع ﷺ كل سبل الجحود والإنكار ، ويقـرر منزلتـه وسمو قدره عند ربه جاء بهذا التأكيد ، أو أن التأكيد لرفع الزعم عما ينتهى إليـه نسبه الشريف ، فقد (بلغ النبي ﷺ أن رجالا من كندة يزعمون أنه منهم ، فقال :

---

(١) صحيح مسلم ٢/٣١٠ كتاب الفضائل ، باب فضل نسب النبيﷺ وتسليم الحجر عليـه قبـل النبوة ، ط الكتب العلمية – بيروت .

(٢) الزخرف آية :٣١ .

إنما يقول ذلك العباس وأبو سفيان إذا قدما إليكم ليأمنا بذلك، وإنا لا ننتفي عن آبائنا ، نحن بنو النضر بن كنانة...) [١] وإسناد الاصطفاء إلى الله إسناد حقيقي ، فيه دلالة على حب مولاه له ﷺ ، لأنه إذا كان الاصطفاء يدل على التنقية والاختيار ، فكيف الحال وقد أسند إلى الله عز وجل، ومعلوم أن الصنعة تجل بجلال مبدعها، إن ذلك ليدل على مزيد العناية الإلهية به ، حيث تولى بنفسه اصطفاءه على هذا النحو ،ولم يعهد به إلى أحد من خلقه ، وفى التعبير بـ " اصطفى " استعارة مكنية ، شبه انحداره ﷺ من سلالة طاهرة ، بالشيء ينقى ويخلص مما قد يشينه ، وهى تكشف مزيد الكرامة وعلو المكانة.[٢] " فمعنى اصطفاهم أى صفاهم من الصفات الذميمة ، وزينهم بالخصال الحميدة ، وجعلهم صفوة خلقه تمثيلا بما يشاهد من الشيء الذى يصفى وينقى من الكدورة " [٣] ، والفعل " اصطفى " فيه دلالة على أنه ﷺ حاز كل خصال الخير وفضائله ، لأنه يقال (ناقة صفي : أى غزيرة كثيرة اللبن ... ونخلة صفيّ: كثيرة الحمل) [٤]. وكنانة قبيلة من مضر ، تنسب إلى كنانة بن

---

(١) فيض القدير للمناوى ٣٧/٣ ط دار الحديث- القاهرة . وفى مسند أحمد من حديث الكندى قال (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَزْعُمُ أَنَّكُمْ مِنَّا – يعنى من اليمن - فَقَالَ- رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - نَحْنُ بَنُو النَّضْرِ بْنُ كِنَانَةَ لَا نَقْفُو أُمَّنَا وَلَا نَنْتَفِي مِنْ أَبِينَا قَالَ الْأَشْعَثُ فَوَاللَّهِ لَا أَسْمَعُ أَحَدًا نَفَى قُرَيْشًا مِنْ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ إِلَّا جَلَدْتُهُ الْحَدَّ) مسند الإمام أحمد بن خنبل : حديث الأشعث بن قيس ٣١٥/٤ ،ط دار الفكر ، المعجم الكبير للطبرانى تح / حمدى السلفى ٢٨٢/١ – ط أولى ١٤٠٠هـ- الأمانة . بغداد .

(٢) واصطفى : افتعل من الصفوة ، وهى خيار الشيء وخلاصته ، وأصله : اصتفى قلبت تاء الافتعال طاء لمناسبة حرف الإطباق .

(٣) حاشية محي الدين شيخ زادة على حاشية البيضاوى ٣/ ٤٦ ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٤) لسان العرب لابن منظور ٣٧١/٧ " صفا " – ط دار إحياء التراث . وجاء بالاصطفاء دون الاختيار ، لأن الاختيار (أخذك خير ما فى الشيء حقيقة ، أو خيره عندك ، والاصطفاء : أخذ

خزيمة بن مدركة بن إلياس بن نزار بن مضر بن معد بن عدنان ...ويمتد نسبه بعد ذلك إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وإلى كنانة تنتهى أنساب الحجاز ، وكان من ولد كنانة النضر الذى تنتهى إليه أنساب قريش ، وإسماعيل هو أبو العرب المستعربة ، والجد الأكبر لرسول الله ﷺ [١] وهو الذبيح الأول ، من قوله ﷺ (أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْن) [٢] ، وقد اصطفاه الله من ولد إبراهيم ، ففى الحديث " إِنّ اللهَ اصْطَفى من وَلَدِ إبرَاهِيم إسْمَاعِيل " [٣] ويمتد هذا الاصطفاء إلى آدم عليه السلام – لقوله تعالى – ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ [٤] يقول أبو السعود : (ت ٩٥١هـ) : " والأنبياء من أولادهما الذين من جملتهم النبي ، وأما اصطفاء نفسه عليه الصلاة و السلام فمفهوم من اصطفائهم بطريق الأولوية ، وعدم التصريح به ، للإيذان بالغنى عنه لكمال شهرة أمره في الخلة ، وكونه إمام الأنبياء ، وقدوة الرسل عليهم الصلاة والسلام " [٥] ، وإنما آثر ﷺ الارتقاء بالانتهاء إلى نسب خليل الله إبراهيم مع أن إدريس أول من أُعطى النبوة

ما يصفو منه) . [الفروق اللغوية لأبي هلال العسكرى ٢٣٦ ط ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م مكتبة القدسي] .

(١) ولم يكن إسماعيل عربيا ، لكنه تزوج من جرهم وتعلم العربية منهم هو وأولاده ، وقد رزق باثنى عشر ولدا ، وذريتهم العرب المستعربة ، لأنهم يرجعون إلى إسماعيل ، فهم عرب من جهة الأمهات لا من جهة الآباء ، وقد عاش إسماعيل مائة وثلاثين عاما ، ثم مات ودفن فى الحجر مع أمه هاجر .

(٢) الدر المنثور للسيوطى ٢٨١/٥ ط دار المعرفة – بيروت – لبنان ، الكاف الشاف لابن حجر :١٤١ ضمن ج ٤ من تفسير الكشاف – ط : دار عالم المعرفة .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل٤١٥/٤ .

(٤) آل عمران :٣٣-٣٤ .

(٥) تفسير أبي السعود ٢٦/٢ ط ثانية ١٤١١هـ/١٩٩٠م – دار إحياء التراث العربي – بيروت .

من بنى آدم ، إشارة إلى أنه مُتبع ملة إبراهيم ، سالك مسلكه ، متخذ البيت الحرام الذى وضع قواعده قبلة ومُصلى ، تحقيقاً لقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ [١] مما يتوافق مع طبيعة قومه الذين ألفوا البيت الحرام ، واعتدوا بمكانته ، وأيضا فإن إبراهيم كان إماما قدوة جامعاً لخصال الخير حتى اختاره الله لخلته [٢] ، وكذلك كان النبى ﷺ ، يقول ابن مسعود : إن الله نظر فى قلوب العباد فوجد قلبه ﷺ خير قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، فبعثه برسالته [٣] .

هذا وقد استهل الحديث بهذه الجملة الاسمية المؤكدة ، للدلالة على أن هذا الاصطفاء ثابت ومحقق ، وقضى الله به أزلاً ، وقد دعم ذلك مجيء الفعل " اصطفى " بصيغة الماضى ، ثم نلحظ التدرج فى الاصطفاء من الأعلى للأدنى " واصطفى قريشا من كنانة " فاختصت الألفاظ بحسن التقسيم ، والتناسق الصوتى التام ، الذى يدعو إلى ربط المعانى بألفاظها فى الذاكرة ، على نحو ترديدى سهل الاسترجاع ، قوى التأثير فى النفس والفكر، فالمعانى تنحدر انحدارا ، ويتولد بعضها من بعض ، فالنبي ﷺ يستمر فى بيان اصطفاء الله لأصوله على ما اشتهر أمره ، وذاع صيته ، بعيداً عن كل ما يمكن أن يشوبه تخرّص وظنون ، فنجده يكرر الفعل " اصطفى " تأكيداً فى الإفصاح عن انحداره من منبع ثري بالفضائل ، حيث التأكيد على الاصطفاء المتواصل لأصوله ، و " قريش" وهبها الله الأمن والأمان [٤] ، وسميت بذلك لتنزهها عن رذائل الأمور ، من قولهم : (تقرّش عن الشيء : تنزه عنه) [٥]

---

(١) النحل :١٢٣ .

(٢) قال تعالى﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ النحل :١٢٠ .

(٣) الشفا للقاضي عياض ١٧٦/١ ط ١٢٨٧هـ بريلي – الهند – المطبع الصديقي .

(٤) ومن ثم عرفت بتجرها وتكسبها وضربها فى البلاد تبتغى الرزق ، فكان لها رحلتى الشتاء والصيف .

(٥) لسان العرب ١٠٧/١١ قرش .

، وكان ﷺ يفتخر بنسبه إلى قريش وبفصاحته ، فيقول : (أنا مِنْ قُـرَيْشٍ ولِسـانِي لِسانُ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ) [١] ، وفى الكلام إيجـاز بحـذف المسـند ، إذ التقـدير : واصطفى الله قريشا من كنانة ، واستدل بهذه الجملة على أن أنساب قريش تنتهـى إلى النضر بن كنانة ، فما كان فوق فهر فليس بقرشي بل هو كنانى .

ويستمر ﷺ فى بيانه لهذا الاصطفاء ، وتدرجه بقوله " واصطفى من قريش بنى هاشم " ونلحظ التنوع فى الأسلوب ، حيث نجد هنا تقديم المصطفى ، وفى ذلك إشارة إلى قرب الهدف من الاصطفاء وغايته ، وزيادة " مِنْ " تدل على تعدد بطون قريش ، وتخصيص بنى هاشم بالاصطفاء من قريش يدل على منـزلتهم ، وعلـو شأنهم ، و " هاشم " هو ابن عبد مناف أبو عبد المطلب ، الجد الأول له ﷺ ، وولى الرفادة والسقاية ، وهو أول من سنّ رحلتى الشتاء والصيف لقريش [٢] ، وفى قوله " واصطفانى من بنى هاشم " جاء الفعل مضافا إلى ياء المتكلم ، لبيان أنه ﷺ نهاية هذا الاصطفاء ، وأن اصطفاء أصوله كان من أجله ﷺ ، وهى جملة تدل على علـو المنزلة ، ورفعة المكانة له ﷺ عند ربه ، وجاء الوصل بين الجمل لاتحادهـا فـى الخبرية لفظا ومعنى ، فهى تشترك جميعها فى تقرير المعنى المراد، وبهذه الجمـل بيَّن ﷺ منزلته عند مولاه ، فإذا كان الله قد اصطفى أصوله من بين سائر الخلـق ، ثم اصطفاه هو من هذه الأصول ، تبيَّن أن محمداً ﷺ صفوة الخلـق، وهـو حبيـب الحق[٣]، وهذا التدرج فى الاصطفاء وضحه ﷺ فى حديث آخر بقوله (لَمْ يَـزلِ اللهُ

---

(١) كنز العمال للهندى تح / بكرى حيان وآخرين ٤٠٤/١١ ط ١٤٠٩هـ مؤسسة الرسـالة - بيروت .

(٢) وكان يسمى عَمرأ،وهو أول من أطعم الثريد للحجاج فى مكة،وسمى هاشما لهشمه الخبز فـى مكة لقومه.

(٣) لأن الصفى من الغنيمة : ما اصطفاه الرئيس من المغنم ، واصطفاه لنفسه قبل القسمة مـن فرس أو سيف أو غيره . [لسان العرب ٣٧٠/٧ صفا] .

يَنقلْنِي مِن أَصْلابِ الكِرَامِ إلى الأَرْحَامِ الطَاهرةِ حتّى أَخْرجَنِي مِن بَين أَبوي لَمْ يلتقيا على سِفَاحٍ قَطْ)[١] .

بهذه الجمل الأربع جمع ﷺ بين المعنى الحقيقى والمعنى الكنائى ، فالمعنى الحقيقى هو هذا التدرج الذى انحدر منه ﷺ ، فاصطفى الله كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشا من كنانة ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفى محمداً ﷺ من بنى هاشم ، والمعنى الكنائى هو علو نسبه ، وسمو قدره ، وهو بهذه الكناية يقيم الدليل على دعواه فيكون قوله أدخل فى النفس ، وأدل على الصدق .

---

(١) المطالب العالية لابن حجر ١٢٤/٢ باب أولية النبي ﷺ وشرف أصله ، وأخرج ابن عساكر ٢٧٦/١ " قد خرجت من صلب أبي آدم ، ولم تزل تنازعنى الأمم كابرا عن كابر ، حتى خرجت من أفضل حيين من العرب هاشم وزهرة " .

المبحث الثانى

حديثه ﷺ عن مولده ، وأسمائه

ولد ﷺ بمكة [١] فى عهد كسرى أنوشروان ، عام قدم أبرهة الأشرم يريد هدم بيت الله الحرام ، ونزل على يد الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف ، رافعاً بصره إلى السماء ، واضعاً يديه على الأرض ، مكحولاً نظيفاً مسروراً [٢] مختوناً [٣] ، وقد تحدث ﷺ عن مولده فقد أفاد بيانه الشريف أنه ولد يوم الاثنين فـ (عَنْ أَبِى قَتَادَةَ الأَنْصَارِىِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الاِثْنَيْنِ قَالَ ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ وَيَوْمٌ بُعِثْتُ أَوْ أُنْزِلَ عَلَىَّ فِيهِ) [٤] ، فالحديث يؤسس على جانب استفهامى توضيحى من صحابي جليل لرسول الله ﷺ ، والراوى هنا يحكى ما حدث ، لذا نجد الكلام يأخذ طابعا خاصاً هو الحكاية والخبر ، والصحابي يسأل النبي ﷺ عن فضل يوم الاثنين ، ولعل الدافع وراء سؤاله هذا أنه رأى النبي ﷺ يقصده بالصوم [٥]

---

(١) فى الدار التى كانت لمحمد بن يوسف الثقفى أخى الحجاج ، وقيل ولد بالشعب ، وقيل بالردم ، وقيل بعسفان .

(٢) أى مقطوع السرة ، وهو ما تقطعه القابلة من السرة

(٣) أى على صورة المختون ، وقيل ختنه جده عبد المطلب سابع ولادته ، وصنع له مأدبة تفوق الوصف ، ويمكن الجمع بينهما ، بأنه يجوز أن يكون ولد مختوناً غير تام ، فتمم جده ختانه ، وقيل ختنه جبريل يوم شق صدره [يراجع نور الأبصار للشيخ سيد الشبلنجى ، ص١٠ ، مطبعة عبد السلام شقرون ١٩٦٣م] .

(٤) صحيح مسلم ١/ ٤٧٤ كتاب الصوم . باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وصوم يوم عرفة عاشوراء والاثنين والخميس .

(٥) فعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يتحرى صوم الاثنين والخميس " الجامع الصحيح للترمذى ١١٢/٣ حديث رقم : ٧٤٥ كتاب الصوم ، باب ما جاء فى صوم الاثنين والخميس ، سنن ابن ماجة ٥٥٣/١ حديث رقم : ١٧٣٩ كتاب : الصوم ، باب : صيام يوم الاثنين والخميس .

وهذا يعكس مدى حب الصحابة لمعرفة ما يعرض لهم، فإذا ما أجابهم ﷺ امتثلوا، فيتحقق لهم ذلك الفضل ، والنبي ﷺ يُسأل لأنه أهل للسؤال ، وأهل للإجابة ، والصحابة يسألونه ؛ لأنهم يعرفون قدره وقيمته ، فهو المعلم الأول ، ويوم الاثنين هو علم على الثانى من أيام الأسبوع ؛ لأن الأول عندهم الأحد ، وجاءت إجابته ﷺ مشتملة على لمحات بلاغية رائعة ، معتمدة على الجملة الخبرية التقريرية التى تفيد إثبات الحقائق وتأكيدها ، وحذف المسند إليه هنا لشدة العلم به ، واستقراره فى نفس السائل ، كما اتسمت إجابته بالإيجاز البليغ، فلم تتجاوز جملتين ، حوت كل منهما الكثير من المعانى ، ودل بما ذكر على ما لم يذكر ، حيث اقتصر على ذكر نعمتين من نعمه تعالى على هذه الأمة فى مثل هذا اليوم ، وهما مولده وبعثته ، وقد وضح ﷺ فضائل هذا اليوم وعلة صيامه له فى أحاديث أُخر [١] .

وقوله ﷺ فى الجواب " فيه ولدت " بيان للنعمة الأولى (فإن أعظم نعم الله على هذه الأمة إظهار محمد ﷺ لهم ، وبعثته وإرساله إليهم ، كما قال تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾) [٢] ، وتقديم الجار والمجرور " فيه " على الفعل " ولدت " أفاد اختصاص اليوم كله بهذا الفضل ؛ وأن اليوم كله بليله

---

(١) منها حديث أبي هريرة " تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ " سنن أبي داوود ٦١٦/١ كتاب الصوم ، باب : فى صوم الاثنين والخميس ، سنن الدارمى ٢٠/٢ ط- دار إحياء السنة المحمدية ، وفى حديث آخر : " إِنَّ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَالْخَمِيسَ يَغْفِرُ اللَّهُ فِيهِمَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ إِلَّا مُهْتَجِرَيْنِ يَقُولُ دَعْهُمَا حَتَّى يَصْطَلِحَا " سنن ابن ماجه حديث رقم : ١٧٤٠ كتاب الصوم ، باب : صيام يوم الاثنين والخميس ، وحديث " تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ .... " صحيح مسلم ٤٢٥/٢ كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : النهى عن الفحشاء والتهاجر .

(٢) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي تح / عماد زكى البارودى : ١٦٧ المكتبة التوفيقية – القاهرة . والآية من : آل عمران : ١٦٤

ونهاره زمن لهذه النعمة ، أعنى مدته ، وهذا المعنى يجمع بين ما روى أنه ﷺ ولد مع الصبح ، وما ورد أنه وُلد ليلاً [١] ، ويؤكد ذلك رواية " ذلك يوم ولدت فيه " فالمراد باليوم ساعاته ، وليفيد التقديم أيضاً اختصاص يوم الاثنين بمولده ﷺ ، فقد حُكى عن بعضهم أنه وُلد يوم الجمعة ، قال ابن رجب " وهو قول ساقط مردود " [٢] ، ونلحظ حذف المسند إليه للعلم به ، إذ العرب تحذف من الكلام ما قامت القرائن على وجوده مقدراً ، والأصل فيه ولدتنى أمى ، ولعل فى الحذف إشارة إلى سر العناية الإلهية الخاصة به ﷺ ، وأن آمنة وما حدث لها ما هو إلا صورة مما تجرى عليه نواميس البشر [٣] .

قال إبراهيم بن المنذر المخزومى " ت ٢٣٦هـ " : الذى لا يشك فيه أحد من علمائنا أنه ﷺ ولد عام الفيل ، وقال خليفة بن خياط " ت ٢٤٠هـ ": هذا هو المجمع عليه ، وكانت قصة الفيل توطئة لنبوته ، وتقدمة لظهوره وبعثته [٤] .

والمشهور أنه ﷺ ولد بعد حادث الفيل بخمسين يوما ، والمشهور أيضا أنه ولد يوم الاثنين الثانى عشر من ربيع الأول ، والتحقيق أن مولده كان يوم الاثنين ليلة التاسع من ربيع الأول ، الموافق للعشرين من أغسطس سنة ٥٧١ م ، وهذا

---

(١) فقد ذكر ابن كثير أنه ﷺ ولد مع الصبح ، وذكر الطبرى وابن حجر أنه ولد ليلا ، البداية والنهاية ٧٠٥/١ ، ٧٠٦ ،ط دار الغد العربي ، ثالثة – مكتبة المعارف – بيروت – لبنان ، تاريخ الطبرى تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم١٥٧/٢ ، ط رابعة ، دار المعارف ، فتح البارى تح / محمد فؤاد عبد الباقى ٦٧٥/٦ ط أولى ١٤٠٧هـ دار الريان .

(٢) لطائف المعارف /١٥٩ .

(٣) إذ يروى : " أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدّث أنها أُتيت لما حملت برسول الله ﷺ فقيل لها : إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع على الأرض فقولي : أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ، ثم سميه محمدا ، ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت منه قصور بصرى من أرض الشام " تاريخ الطبرى ١٥٦/٢ .

(٤) لطائف المعارف :١٦٣ .

القول هو المعتمد [١] ، وهذا التقصى الدقيق يشعر بصدق استيفاء ما يتعلق بحياته ﷺ ما لم يتوفر فى سيرة شخصية من شخصيات الأنبياء والمرسلين والقديسين والقادة والمصلحين [٢] .

ويأتى بيان النعمة الثانية بقوله " وفيه أنزل علىّ " (فإن النعمة على الأمة بإرساله أعظم من النعمة عليهم بإيجاد السماء والأرض، والشمس و القمر ، والرياح والليل والنهار، وإنزال المطر وإخراج النبات وغير ذلك ، فإن هذه النعم كلها قد عمت خلقا من بني آدم كفروا بالله وبرسله و لقائه ، فبدلوا نعمة الله كفرا ، فأما النعمة بإرسال محمد ﷺ فإن بها تمت مصالح الدنيا والآخرة ، وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده ، وكان قبوله سبب سعادتهم في دنياهم و آخرتهم) [٣] ، ومعنى "" أُنزل علىّ " أى : أنزل الله على الوحى ، أو أنزل الله جبريل على بالوحى أو بالرسالة ، ففيه إيجاز بالحذف دل عليه السياق ، وقد حدث ذلك فى غار حراء ، ويؤيد ذلك رواية " ذلك يوم ولدت فيه ، ويوم بعثت ، أو أنزل على فيه " ، والتعبير بـ " أُنزل " [٤] يوحي بالتجسيد والتشخيص ، حيث يتخيل المتلقى صورة الوحى وهو ينزل ، فضلا عما فى الأسلوب من الإلغاز وإثارة الذهن ، حيث يفسح المجال للعقل ، والخيال معا فى تخيل نزول جبريل بالوحى ، ويتأمل العقل هذا الفيض الإلهى ، والخير الربانى الذى أرسله رب البرية لعباده ، ومن ثم تتجه الهمة إلى الالتزام به والحرص عليه ، وحذف المسند إليه للعلم به ، إذ لا منزل إلا الله

---

(١) لأنه الموافق رجح الروايات ، ولأنه مبنى على حساب دقيق .

(٢) ينظر : محمد رسول الله لمحمد الصادق عرجون ١/ ١٠٣ ط ثانية ١٤١٥هـ ، دار القلم – دمشق .

(٣) لطائف المعارف :١٦٧ .

(٤) ببنائه للمفعول فيه إيحاء بأنه ﷺ لا دخل له فى الأمر ، ولا شأن له به ، إنما هو اختيار إلهي ، وتدبير سماوى ، واصطفاء ربانى .

سبحانه ، والتعبير بـ " علىّ " يوحى بثقل الوحى قال تعالى﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [١] ، ودلالة الجار والمجرور " فيه "تبرز فى الإشارة إلى ما حدث له ﷺ فى ذلك اليوم ، فقد ظل مشغولاً لم يهدأ حتى طمأنه ورقة بن نوفل بأنه هو الناموس الذى نزل على موسي ، هكذا عن طريق الألفاظ الموحية ذات الدلالات الوافية أخبرنا ﷺ عن يوم مولده ، ويوم بعثته .

ونلحظ الوصل بين جملتى الحديث ؛ لاتفاقهما فى الخبرية لفظا ومعنى ، فهما يشتركان فى تقرير معنى واحد ، وهونعم الله على خلقه ، وتقديم الجار والمجرور يرد قول ابن إسحاق : أن النبوة نزلت يوم الجمعة ، فقد نقل ابن رجب أنه ﷺ نبئ يوم الاثنين لثمان من ربيع الأول [٢]، وعن ابن عباس قال : ولد النبي ﷺ يوم الاثنين ، واستنبئ يوم الاثنين ، وتوفى يوم الاثنين ، وخرج مهاجرا من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين ، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين [٣] .

أما عن أسمائه ﷺ فقد وردت له أسماء كثيرة فى القرآن والأحاديث الصحيحة والكتب السالفة [٤] ، فـ (عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ وُلِدَ

---

(١) المزمل آية :٥ .

(٢) لطائف المعارف :١٦٦ .

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤٠٨/٥ .

(٤) فمما ورد فى القرآن : محمد ، وأحمد ، والرسول ، والنبى ، والشاهد ، والبشير ، والنذير ..... ، ومما ورد فى الحديث : محمد ، وأحمد ، والماحى ، والحاشر ، والعاقب ، والمقفى ، ..... ، ومما ورد فى كتب الأنبياء: حمياطا: بفتح الحاء وسكون الميم ، قال أبو عمرو: سألت بعض من أسلم من اليهود عنه ، فقال: معناه يحمى الحرم من الحرام بوطئ الحلال ، وأحيد: بهمزة مضمومة ثم حاء مهملة مكسورة ، ثم مثناة تحتية ساكنة فدال ، قال ﷺ إنما سميت أحيد لأنى أحيد عن أمتى نار جهنم . [يراجع : نور الأبصار ، ص٢٥] .

لَهُ غُلاَمٌ فَأَرَادَ أَنْ يُسَمِّيَهُ مُحَمَّدًا فَأَتَى النَّبِىَّ ﷺ فَسَأَلَهُ فَقَالَ: أَحْسَنَتِ الأَنْصَارُ سَمُّوا بِاسْمِى وَلاَ تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِى)[١] ، وفى رواية أن قومه منعوه من ذلك ، وقالوا له : لا ندعك تسمى باسم رسول الله ﷺ فلما أجاز له ﷺ ذلك ، أبان ﷺ عن أسمائه ، فـــ (عن مُحَمَّدَ بْنَ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ النَّبِىَّ ﷺ قَالَ : إن لى أسماء: أَنَا مُحَمَّدٌ ، وَأَنَا أَحْمَدُ ، وَأَنَا الْمَاحِى الَّذِى يُمْحَو الله بِىَ الْكُفْرُ ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِى يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قدمى ، وَأَنَا الْعَاقِبُ الَّذِى لَيْسَ بَعْدَهُ أحد)[٢] ، فالسياق أفصح عن أن جلال الرسل وعظمتهم ، قد تؤدى إلى أن يتهيب الإنسان أن يطلق مسماهم على من يسمي ، فجاء أمره الشريف على طريق النصح والإرشاد ؛ لئلا يتحرَّج عن التسمية بأسماء الأنبياء ، ثم ذكر ﷺ أسماءه بأسلوب بلاغى رائع ، حيث استهل الحديث بهذا التأكيد " إن " وتقديم الخبر " لي " ليؤكد على ثبوت هذه الأسماء له من ناحية ، ولتنبيه المتلقى ، وتشويقه لمعرفة تلك الأسماء حتى إذا جاءت صادفت نفسا مهيأة فاستقرت فيها ، ومن ثم يكون الإقبال على تعظيمها ، والتسمية بها تبركاً ، كما يهدف التأكيد إلى أن هذه الأسماء مذكورة فى كتب الله المنزلة على الأمم السابقة ، والتى كذبت بنبوته ﷺ حجة عليهم ، وقوله " إن لى أسماء " إجمال وإبهام يثير النفس ، ويحركها نحو التطلع لمعرفة ما أُجمل ، ولذا أعقبها ﷺ بخمس جمل تآزرت فى بيان ما جاء مطوياً ، وجاءت مفصولة عن الجملة الأولى للاستئناف البياني ، وأول هذه الجمل قوله " أنا محمد " وهى مكونة من مسند إليه ومسند ، وجاء المسند إليه معرفة حال كونه ضميراً للمتكلم ؛ لأن المقام مقام التكلم، ولا يشعر بخصوص التكلم ، وكذا الخطاب والغيبة إلا الضمير [٣] ، ثم جاء

---

(١) صحيح مسلم : ٥٥٧ حديث رقم : ٢١٣٣ كتاب الآداب ، باب : النهى عن التكنى بأبي القاسم ، وبيان ما يستحب من الأسماء .

(٢) صحيح مسلم ٣٣٦/٢ كتاب الفضائل ، باب : فى أسمائه ﷺ .

(٣) وهذا لا ينافى أن الاسم الظاهر يشعر بالتكلم أو الخطاب أو الغيبة إلا نه ليس نصا فى ذلك .

المسند معرفا بالعلمية ، لأن الضمير موضوع لكثيرين بخلاف العلم ، فجيء به لإحضار مسماه فى ذهن السامع باسمه الخاص به ، وبهذا يتآزر الضمير مع العلم فى تحديد ذاته ﷺ واسمه ، والتعبير بالجملة الاسمية فيه دلالة على الثبوت ولفظ " محمد " مشتق من الحمد ، وهو مبالغة فيه ، كأنه حمد مرة بعد مرة ، و (المحمد الذى كثرت خصاله المحمودة) [١] ، ومحمد : اسم فيه معنى الوصف ، وهذا يعنى أنه ﷺ محمود من قبل الناس قبل رسالته ؛ لأمانته وصدقه وطهارته وعفته ، ويوحى بأن معارضة قريش لدعوته كانت تكبراً وعناداً ، وأن ما حُمد عليه من عظيم الخصال يؤهله لهذا الخير الإلهى ، وأن تكون رسالته خاتمة الرسالات ، فقد كمل صاحبها فى صفاته ، وكملت رسالته فى المنهج و(قدّمه لأنه أشرفها ، ومن باب التفعيل للمبالغة ، ولم يسم به غيره قبله ، لكن لما قرب مولده سموا به نحو خمسة عشر رجاء كونه هو) [٢] ، أو لأنه المشهور بين الناس ، وهو ما سماه به أهله ، ففى صحيح مسلم (إِنَّ اسْمِى الَّذِى سَمَّانِى بِهِ أَهْلِى مُحَمَّدًا) [٣] ، وهذا الاسم هو ما أُمرت آمنة أن تسميه به ، فقد روى أنها لما حملت به قيل لها : (إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع على الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد ، ثم سميه محمدا ...) [٤] ، وقد جاء هذا الاسم فى القرآن الكريم أكثر من مرة [٥] ،وهذا الاسم ينبئ أن الله علم بما سيكون عليه أمره فحمده ، ثم أمر جبريل

---

(١) لسان العرب ٣١٦/٣ حمد .

(٢) فيض القدير ٥١٨/٢ .

(٣) صحيح مسلم :٨٥ كتاب الحيض ، باب : صفة منى الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما .

(٤) تاريخ الطبرى ١٥٦/٢ .

(٥) قال تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ آل عمران :١٤٤ ، ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ الأحزاب: ٤٠ ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ الفتح: ٢٩ .

فحمده ، ثم نادى جبريل فى أهل الأرض بحمده فحمدوه ، ومن هنا قال جده : سميته محمدا وإنى لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم [١] .

وجاءت الجملة الثانية (وأنا أحمد) موصولة للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، فكل منهما خبرية لفظا ومعنى ، والمعنى : وأنا أحمد الحامدين ، فالأنبياء حَمّادون ، وهو أحمدهم ، أى : أكثرهم حمداً ... وتسميته به من خصائصه ، ولم يسم به أحد قبله . [٢] .

وأحمد أفعل تفضيل ، وقد جاء مجردا عن معنى التفضيل ، فهو للتفضيل لا للأفضلية[٣]، ومحمد وأحمد مشتقان من الحمد، الذى هو نقيض الذم،وهما يدلان على أنه ﷺ حاز خصال الحمد، يقال: أحمد الرجل : فعل ما يحمد عليه ، وأحمد الرجل: صار أمره إلى الحمد[٤]، وهذا الاسم ورد فى القرآن الكريم على لسان عيسي عليه السلام فى قوله ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [٥] .

---

(١) ينظر: الرسول ﷺ لمحات من حياته ونفحات من هديه لعبد الحليم محمود ، ص٤٠ مطبوعات دار الشعب ١٩٦٩م .

(٢) فيض القدير ٥١٨/٢ ، وهذا الاسم " أحمد " مكتوب بلفظه العربى فى السامافيدا من كتب البراهمة ، فقد ورد (إن أحمد تلقى الشريعة من ربه وهى مملؤة بالحكمة ...) [محمد فى بشارات الأنبياء لمحمود الشرقاوى ، ص١٨ ، ط مؤسسة دار الشعب – القاهرة] .

(٣) ينظر : البرهان للزركشي تح / محمد أبو الفضل إبراهيم ١٧١/٤ ، مكتبة دار التراث – القاهرة .

(٤) لسان العرب ١٥/٣ ٣حمد . (وأحمد الأرض : صادفها حميدة ، وهذا المعنى يؤيده ما روى عن عبد ابن مسعود أنه قال" إن الله اطلع على قلوب عباده ، فوجد قلبه ﷺ خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه ، فبعثه برسالته " .

(٥) الصف آية :٥ ، (وهذا نص صريح قاطع فى أن عيسى عليه السلام بشر قومه برسالة رسول يجئ بعده اسمه أحمد ، ولم يزعم أحد قط أن اسم أحمد سمى به رسول جاء بعد عيسى غير خاتم الأنبياء محمد بن عبد الله) [محمد رسول الله ، ص١٢٥] .

ثم نلحظ أن الأسماء الباقية تتطلب تفسيرا لما يتعلق بها من أسباب وصفات ، فنراه ﷺ يتبع كل منها بمعناه أو سببه [١] ، فقوله " وأنا الماحى الذي يمحو الله بي الكفر " لفظة " الماحي " اتضح معناها بالذى وصلته ، فاسم الموصول اجتلب ليكون وصلة إلى وصف المعارف بالجمل [٢] ، وفى التعبير بـ " يمحو " زيادة فائدة ، لأن المحو ذهاب الشيء وآثاره ، فالنبي يمحو الكفر من مكة ، وسائر بلاد العرب وما زوى له من الأرض ،ويعفّى آثاره بإذن الله[٣]،أو يمحو الكفر من قلوب المؤمنين،فيكون المراد بالكفر:سيئات من اتبعه[٤] وإسناد محو الكفر إلى الله إسناد حقيقي، يفيد أن الأمور كلها بإرادته، وتحت مشيئته، والإتيان بالجار والمجرور مقدماً على المفعول إشارة إلى فضله ﷺ ومنزلته ، حيث اختاره الله لهذه المهمة العظيمة،وهذا بعض مفهوم الرحمة فى قوله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٥]

ثم يأتى الاسم الرابع متبوعاً بما يوضحه " وأنا الحاشر الذى يحشر الناس على قدمى " فقوله " وأنا الحاشر " فيه قصر بتعريف الطرفين ، والمعنى : وأنا ذو الحشر لا غيرى ، فهو ﷺ أول من يحشر ، لأنه أول من تنشق عنه الأرض ، وأول من يبعث ، وأول وارد المحشر ، كما أنه أول من يدخل الجنة ، وجاء اسم الموصول وصلته لبيان معنى الحاشر ، ومعنى يحشر الناس على قدمى [٦] ، أى

---

(١) ينظر: الخصائص البلاغية اللغوية فى أسلوب الحديث الشريف لفتحية محمود العقدة ص : ٦٨ ط أولى ١٤١٤هـ الأمانة .

(٢) كتاب دلائل الإعجاز للشيخ / عبد القاهر تح / شاكر ص:١٩٩ ط المدنى بجدة .

(٣) وقيل : ويحتمل أن المراد المحو العام بمعنى الظهور بالحجة والغلبة كما قال تعالى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ .

(٤) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووى ٢٠١/٢ ط الحلبي ، فيض القدير ٥١٨/٢ .

(٥) الأنبياء :١٠٧ .

(٦) بتخفيف الياء على الإفراد وتشديدها على التثنية .

على أثر نبوتى ، أى زمنها ، أى ليس بعدى نبي ، قال الطيبي : وهذا إسناد مجازى، لأنه سبب فى حشر الناس ، لأنهم لا يحشرون حتى يحشر [١] ، وفيه تنويه بمنزلته ﷺ لتعجيل الجزاء له ، وفيه أيضا دلالة على أن شريعته جمعت شرائع الأنبياء قبله .

وختم الحديث بقوله " وأنا العاقب " الذى فسره بقوله " الذى ليس بعده أحد " ، وقوله " وأنا العاقب " قصر بتعريف الطرفين ، أى أنا العاقب لا غيري ، وسمى ﷺ بالعاقب ؛ لأنه جاء عقبهم ، ولأنه خلف الرسل قبله فى الخير [٢] ، والوصف بـ " العاقب " فيه دلالة على انقطاع الشرائع قبله وخلود شريعته ، وأنها الدين الذى ارتضاه الله لعباده ، قال تعالى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [٣] وقال ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [٤] .

وفى الحديث (جواز التسمية بأكثر من واحد قال ابن القيم : لكن تركه أولى؛ لأن القصد بالاسم التعريف والتمييز ، والاسم كاف ، وليس كأسماء المصطفى صلى

---

(١) إذ هو يحشر قبلهم كما فى عدة أخبار ، وقال ابن حجر : يحتمل أن المراد بالقدم : الزمان ، أو وقت قيامى على قدمى بظهور علامات الحشر ، إشارة إلى أنه ليس بعده نبي ولا شريعة ، واستشكل التفسير بأنه يقضى أنه محشور فكيف يصير به حاشراً وهو اسم فاعل ؟ وأجيب بان استناد الفعل إلى الفاعل إضافة وهى تصح بأدنى ملابسة ، فلما كان لا أمة بعد أمته لكونه لا نبي بعده ، نسب إليه الحشر لوقوعه عقبه ، وقيل : معنى : القدم : السبب ، أو المراد على مشاهدتى قائما لله . [فيض القدير ٥١٨/٢] .

(٢) إذ العاقب والعقوب: الذى يخلف من كان قبله فى الخير . [لسان العرب ٣٠١/٩ عقب] .

(٣) آل عمران آية : ١٩ وقال ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ آل عمران آية :٨٥ .

(٤) المائدة آية :٣ .

الله عليه و سلم ؛ لأن أسماءه كانت نعوتاً دالة على كمال المدح ، فلم يكن إلا من باب تكثير الأسماء لجلالة المسمى لا للتعريف فحسب) [١] .

وفى رواية لأبي موسي الأشعري (أَنَا مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَالْمُقَفِّى وَالْحَاشِرُ وَنَبِىُّ التَّوْبَةِ وَنَبِىُّ الرَّحْمَةِ) [٢] ، وهذا الحديث يضيف ثلاثة أسماء له ﷺ هى: المقفِّى ، ونبى التوبة ، ونبى الرحمة ، وجاءت هذه الأسماء المضمنة معنى الوصف بالواو للدلالة على أنه ﷺ بلغ الكمال فى كل واحدة منها ، وأنه الجامع تلك الصفات ، ومعنى (المقفى) المتبع لما قبله ، وسمى ﷺ بالمقفى لأنه آخر الأنبياء ومتبع لهم ، مأخوذ من القافية المكررة فى كل بيت إلا أن مكانها فى الآخر ، وفى التسمية بـ (المقفى) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنْ الرُّسُلِ ﴾ [٣] ، وقوله فى صفته ﷺ : (وخاتم النبيين) ، أما تسميته ﷺ بـ(نبى التوبة) فلأنه كان كثير التوبة إلى الله ، فـ (لقد كان رسول الله ﷺ فى ترقيه الدائم وفى أنواره التى تزداد كل لحظة ضياء يستغفر الله ويتوب إليه استغفار عبادة ، وتوبة إنابة وقربى) [٤] ، لذا قال: " والله إنى لاستغفر الله ، وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة "

وللتوبة عند رسول الله ﷺ وفى الجو الإسلامى على وجه العموم شأن كبير، ذلك أن التوبة إنما هى تصفية للنفس وتزكية للروح ، ونتيجتها الإخلاص [٥] .

أما تسميته ﷺ بـ (نبى الرحمة) فلأنه سبب إلى رحمة الله ، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [٦] ولقد ضرب ﷺ أروع الأمثلة فى الرحمة ، حتى

---

(١) فيض القدير ٥١٨/٢ .

(٢) صحيح مسلم ٣٣٦/٢ كتاب الفضائل ، باب فى أسمائه ﷺ .

(٣) سورة الأحقاف آية ٩ .

(٤) الرسول لمحات من حياته ونفحات من هديه لعبد الحليم محمود ، ص٥٣ .

(٥) الرسول ﷺ لمحات من حياته ونفحات من هديه ، ص٤٦ .

(٦) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

وصفه ربه بأنه ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [١] ، وقال: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٢] ونلحظ فى الحديث تعدد الحذف للمسند إليه؛ لأن ذكره مع وجود ما يدل عليه عبث تنزه عنه ﷺ، هكذا من خلال هذه الأساليب الخبرية حدثنا ﷺ عن أسمائه بأسلوب بلاغى لا غموض فيه ولا استكراه .

---

(١) سورة التوبة من الآية ١٢٨ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

المبحث الثالث

حديثه ﷺ عـــن بشريته

فى هذا المبحث نحاول أن نلقى الضوء على شخصيته ﷺ كبشر ، حمل إلى الإنسانية أسمى رسالة ، أخذت بأيديها من الحضيض إلى حيث الحياة الصـــحيحة ، والعيش الكريم ، والضمانات التى تكفل لها عزتها وحريتها ، والقرآن الكريم كـــان حريصاً على أن يقدم شخصيته ﷺ مجردة من كل خيال أو غلو ، فأكد على بشريته بذكر ما تقتضيه هذا الطبيعة البشرية انظر قوله: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [١] ، فهو يؤكد أنه ليس إلا بشراً رسولا ، له إمكانيات البشر ، وليس له فوقها ذرة واحدة ، وقوله ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ ﴾ [٢] ، فهو لا يدعى ما لا تتطلبه طبيعته البشرية ، وكذلك قوله ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [٣] ، وأثبت ﷺ لنفسه طبائع وغرائز بشرية ، تعتبر مـــن مســـتلزمات البشر جميعا دون استثناء ، فقد كان ﷺ ينفعل حيال صور وأحـــداث ، لا ســـيما إذا

---

(١) الإسراء الآيات :٩٠-٩٣ .

(٢) الأنعام آية :٥٠ .

(٣) الأعراف آية :١٨٨ .

انتهكت حرمات الله ... ففى الصحيح أنه قال (اللَّهُمَّ إِنَّمَا مُحَمَّدٌ بَشَرٌ يَغْضَبُ كَمَا يَغْضَبُ الْبَشَرُ ...) [١] .

وأخبر ﷺ فى بيانه الشريف عن بشريته بأساليب متنوعة ، منها ما جاء صريحاً " إنما أنا بشر " ومنها ما جاء مضمناً هذا المعنى ، وفى هذا المبحث نلقى الضوء على هذه الأساليب ، وما احتوته من معان :

١- **النبي ﷺ قاض عادل يحكم بحسب الظاهر ويجتهد .**

(عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِىِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَمِعَ جَلَبَةَ خَصْمٍ بِبَابِ حُجْرَتِهِ فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ وَإِنَّهُ يَأْتِينِى الْخَصْمُ فَلَعَلَّ بَعْضَهُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَادِقٌ فَأَقْضِى لَهُ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِىَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ فَلْيَحْمِلْهَا أَوْ يَذَرْهَا) [٢] ، فالحديث فيه مراعاة لمقتضى الحال ، حيث إنه ﷺ عندما سمع خصومة بباب حجرته [٣] ، خرج موجها عظته إليهم ، وقد استهلها بقوله " إنما أنا بشر " مستخدماً أسلوب القصر بطريق " إنما " التى تتصدر خبراً يعلمه المخاطب ولا ينكره [٤] ، فالنبي ﷺ لا يقصد بهذا القول أن يعلمهم أنه بشر ، وإنما أراد أن ينبههم إلى ما تقتضيه البشرية ، فهو تلويح بلاغى ببطلان قول من يزعم أن من كان رسولا فإنه يعلم الغيب ، حتى لا يخفى عليه المظلوم من الظالم ، فالرسول ﷺ أزال هذا الوهم ، مؤكداً أنه مشارك للبشر فى أصل الخلقة،

---

(١) وفى رواية (اللَّهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سَبَبْتُهُ أَوْ لَعَنْتُهُ أَوْ جَلَدْتُهُ فَاجْعَلْهَا لَهُ زَكَاةً وَرَحْمَةً) [صحيح مسلم ٤٣٥/٢ كتاب : البر والصلة والآداب ، باب : من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه ، وليس هو أهلا لذلك كان له زكاة وأجرا ورحمة] .

(٢) صحيح مسلم ٦٠/٢ كتاب الأقضية ، باب الحكم بالظاهر واللحن والحجة .

(٣) وقد كانت فى مواريث وأشياء بينهما درست وليست لهما بينة .

(٤) ينظر : كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى تح / شاكر ٣٣٠ ، والكشاف للزمخشرى ٣٣/١ ، مفتاح العلوم للسكاكى ١٦٦ .

ولو زاد عليهم بالمزايا التى خصه الله تعالى بها﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [١]، والنبي ﷺ بدأ عظته بهذا المعنى ؛ ليحذر أصحابه أن يجرّ أحدهم حب النصر بالباطل إلى أكبر الكبائر ، بأن يغش النبي ﷺ باللسان الخلوب ، والبيان المبهر ، ليحل لنفسه حق غيره مما لا يساويه بيانا ولا يضارعه لسناً [٢] .

فقوله ﷺ " إنما أنا بشر " أى ما أنا إلا بشر ، لا أتجاوز البشرية إلى العلم بالغيب (وإذا كان الأنبياء عليهم السلام لا يعلمون ذلك ، فغير جائز أن تصح دعوة غيرهم من كاهن أو منجم علم) [٣] ، والنبي ﷺ أتى بالمقصور عليه ضميراً مرفوعاً ليدل على ما أراده ، فقد قال سيبويه (اعلم أن المضمر المرفوع إذا حدث عن نفسه فإن علامته أنا ، وإن حدث عن نفسه وعن آخر قال نحن) [٤] ، وكلمة " بشر " وردت فى لغة التنزيل سبعا وثلاثين مرة فى آيات مختلفة ، وقد وقفت على هذه الآيات فوجدت البشر فيها هو المخلوق الضعيف إزاء الخالق القوى الكبير [٥] ، ثم نراه ﷺ يؤكد ما أرده من الجملة الأولى فيقول " وإنه يأتينى الخصم ... فأقضى له " فهذا دليل على أنه ﷺ يحكم بما يسمع من إقرار أو إنكار أو بينة ، وهنا مقامان متقابلان ، أحدهما:حكم القاضى الذى هو وليد الاجتهاد فيما لا نص فيه ، وهو ما كلف به للبحث والتوصل إلى الحقيقة ، فالبينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، وبه يتعلق الخطأ والصواب ، والآخر : ما يبطنه الخصم ولا يظهره للقاضى ،

---

(١) الكهف آية :١١٠ .

(٢) وفى ذلك تعريضان : الأول تعريض ببراءة القاضى من ذنب حكم جار فيه مخدوعا غير قاصد ، والآخر : تعريض بفداحة الجرم اللازمة لمفهوم المجازاة بحمل قطعة من النار ليست شيئا إلا ما استحله المرء من حق أخيه .

(٣) عمدة القاري للعيني ١٤٧/٢ ط أولى ١٣٩٢هـ الحلبي .

(٤) الكتاب ١٦١/١ باب علامات المضمرين .

(٥) ينظر: المائدة :١٨ ، والمؤمنون :٣٣ ، والشعراء : ١٥٤ ، والتغابن : ٦ .

ومن ثم فلا يطلع على الحقيقة إلا الله ، وهذا ما لم يقع تكليف القاضى به ؛ لقوله ﷺ (أمرت لأحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر) ، فإجراء الأحكام على الظاهر يستوى فيه جميع المكلفين[١] ، بهذا البيان أوضح ﷺ بشريته بأسلوب مباشر ، ثم أكد هذه البشرية بما أورده من معنى استدعاه المقام .

٢- أنه ﷺ يعتريه الموت كغيره من البشر .

الموت ظاهرة طبيعية من الظواهر التى تعترض البشر ، ولا يُستثنى منه نبي أو رسول ، ولما مات ﷺ دبّ الوهن فى نفوس بعض أصحابه ، وظنوا أن إلحاق الموت به ﷺ أمر كبير ، فنزل القرآن ليؤكد أن الموت ظاهرة طبيعية ، وهى من الضرورة بمكان لكل كائن ، فقد قضى الله بالموت على كل ما سواه سبحانه ، قال تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [٢] ، وقال ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [٣] ، وقد جاء البيان النبوى ليؤكد هذه الحقيقة ، فـ(عن زيد بن أرقم قال : قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَوَعَظَ وَذَكَّرَ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ أَلاَ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِىَ رَسُولُ رَبِّى فَأُجِيبَ ...) [٤] ، فالصحابي يحدد المكان الذى ألقى فيه ﷺ هذا البيان الشريف ، ليؤكد حضوره وسماعه لهذا البيان ، وقوله " فحمد الله وأثنى عليه " إشارة إلى ما ينبغى أن تستهل به الخطب ، وأتى ﷺ بعده بعدة جمل توحى بلفت النظر ، وجذب الانتباه لأهمية ما سيخبرهم به ، وبعد أن مهّد لبيانه قال : " فإنما أنا بشر " ، فالرسول ﷺ ينادى على الناس كلهم ليعلمهم بأمر مهم ، وهو أنه بشر ، وغرضه

---

(١) وكان ﷺ مثالا يحتذى ، ليتم الاقتداء به ، ولتطيب نفوس العباد للانقياد إلى الأحكام الظاهرة من غير نظر إلى الباطن .

(٢) آل عمران آية :١٤٤ .

(٣) الأنبياء آية :٣٤-٣٥ .

(٤) صحيح مسلم ٣٦٢/٢ ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل على بن أبي طالب ﷺ .

من ذلك بيان أنه ﷺ لا يغنى عنهم من الله شيئا ، ما لم يتمسكوا بكتاب الله وسنته ﷺ ، فهما مصدر نجاتهم ، ثم يؤكد ﷺ بشريته بأنه يجرى عليه ما يجرى على البشر من الموت،قال تعالى﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾[١]، فإذا كان ﷺ بشراً ، فإن الله تعالى قد قال له : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ [٢] ، وقوله ﷺ " فإنما أنا بشر " ليعلم أصحابه أنه لا يتمايز عنهم ، لأن التمايز من أشد مظاهر الظلم وقاحة ، فالنبي واحد من البشر ، إلا أنه صاحب رسالة ، وإنه ممن اصطفاه الله لأمر من الأمور جلت عظمته ، وقد أدرك الناس هذه الحقيقة ، قال تعالى ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [٣] ، وجملة " يوشك أن يأتى رسول ربى فأجيب " كناية عن الموت ، وكنى عنه بالإجابة إشارة إلى أنه ينبغى تلقيه بالقبول ، كأنه مجيب إليه باختياره ، و " رسول ربي " كناية عن موصوف وهو ملك الموت ، والعطف بالفاء فى " فأجيب " إشارة إلى قوله تعالى ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [٤] ، وفصلت جملة " يوشك .... " عما قبلها لوقوعها منها موقع البيان ، وهذا التعبير مأخوذ من لغة الذكر الحكيم ، فقد أخفى الله الأجل عن الناس لحكمة أرادها ، قال تعالى ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [٥] ، وقال ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [٦] ، وفى الكلام إيجاز بالحذف دل عليه السياق ، إذ التقدير: يأتى رسول ربي ليقبض روحى ، والفعل " يوشك " يدل على قرب وقوع الخبر ، فهو من أفعال المقاربة [٧] ، والتعبير به يدل على أن الموت أقرب لأحدنا

---

(١) الزمر :٣٠ .

(٢) الأنبياء : ٣٤ .

(٣) الشعراء آية :١٥٤ .

(٤) الأعراف : ٣٤ ، والنحل :٦١ .

(٥) لقمان :٣٤ .

(٦) الرعد :٣٨-٣٩ .

(٧) وهذه اللفظة ومشتقاتها لم ترد فى النظم القرآنى ، وهى قليلة الوقوع فى البيان النبوى .

من شراك نعله ، وهذا الفعل يأتى خبره فعلاً مضارعاً مقترناً بـ " أن " كثيرا كما هو واضح فى الحديث ، وقد جاء " يوشك " قيداً للفعل " يأتى " لإرادة اطلاع الحاضرين على قرب الأجل مهما طال ؛ كى يكونوا على استعداد للقاء ربهم ، وجاء الخبر مصدراً مؤولاً من " أن " والفعل ليتأتى التعبير بالمضارع الذى يفيد التجدد والحدوث [١] ، مما يتناسب مع قول الملك لمن تبقى من أهل الميت : إن لى فيكم لرجعة حتى لا أبقى منكم أحدا ، وقدم الخبر على المبتدأ هنا لأهميته ، لأن الحديث عن إتيان الرسول وقربه لا عن الرسول .

٣- أنه ﷺ يصاب بما يصاب به سائر البشر

(عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ فَمَسِسْتُهُ بِيَدِى فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا.فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجَلْ إِنِّى أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلاَنِ مِنْكُمْ قَالَ فَقُلْتُ ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجَلْ ...) [٢].

هذا الحديث جاء فى بنية الحوار الذى بدأ فيه الصحابي بمبادرة الرسول ﷺ بالسؤال الدال على التعجب ، وكأن السائل يستكثر أن يصاب النبي ﷺ بما يصاب به سائر البشر ، من أسباب الألم البشرى ومظاهره ، ولكن النبي يرد بما يكشف عن الحقيقة ، وهنا نلحظ التناسب فى القول والائتلاف فى المواقف والأحداث ، وهى سمة من سمات بلاغته ﷺ ، فحاله ﷺ الذى ينبئ عن مرض ألم به ، وقد دخل عليه عبد الله بن مسعود . قد تدعوه إلى أن يتحدث عن الابتلاءات التى أرادها الله له ، فى عظة بالغة حتى يعرف الصحابة أن محمداً ﷺ يجرى عليه من الابتلاءات ما

---

(١) ينظر :دلائل الإعجاز :١٤٧ ، مفتاح العلوم :٣٠٨ ، شروح التلخيص ٢٧/٢ .

(٢) صحيح مسلم ٤٢٧/٢ ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها .

يجرى على غيره ، فكلام الصحابي له ﷺ " إنك لتوعك وعكا شديدا " [١] يكشف عن تعجبه من وعك النبي ﷺ ومرضه ، وجاء الكلام مؤكداً بأكثر من مؤكد ليدل على شدة الاستغراب وقوة التعجب ، كما جاء الفعل " توعك " بصيغة المضارع ليفيد تكرار ذلك ، فالنبي ﷺ كان يستبشر بمرض الحمى الذى يدخل كل مفصل بالجسد ، وبالتالي ينال من أصابته الحمى الثواب الجزيل ، مما يفيده قوله ﷺ (مَا مِنْ وَجَعٍ يُصِيبنِي أَحَبّ إِلَيَّ مِنْ الْحُمَّى ، فإِنَّهَا تَدْخُل فِي كُلّ مَفْصِلٍ مِنْ اِبْن آدَم ، وَاَللَّه يُعْطِي كُلّ مَفْصِلٍ قِسْطه مِنْ الْأَجْر) ، والتأكيد بالمصدر " وعكا " ثم الإتيان بالوصف " شديدا " إشارة إلى قوله ﷺ (إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءَ) ، وقد كشفت الروايات عن هذه الشدة ، ومن ذلك ما روى عن (فَاطِمَة بِنْت الْيَمَان أُخْت حُذَيْفَة قَالَتْ: أَتَيْت النَّبِيّ ﷺ فِي نِسَاء نَعُودهُ فَإِذَا بِسِقَاءٍ يَقْطُر عَلَيْهِ مِنْ شِدَّة الْحُمَّى ...) ونلحظ أن النبي فى رده على كلام الصحابي أبان أن بشريته ﷺ تقتضى ذلك ، حيث أتى جوابه فى أسلوب خبرى يقر حقيقة واقعة " أجل " بل يشير ﷺ إلى مضاعفة فى الألم (إِنِّى أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلاَنِ مِنْكُمْ) الأمر الذى يثير تساؤل المتكلم ، فيمضى فى الأسلوب الحوارى سائلا : (ذَلِكَ أَنَّ لَكَ أَجْرَيْنِ ؟) إشارة إلى تضاعف الحمى ، ويرد النبي ﷺ على تساؤله بالإيجاب " أجل " مؤكدا على العلاقة بين البلاء والجزاء وذلك أن البلاء تطهير للإنسان ، وسبب للمغفرة والرحمة ، إذا صبر عليه ولم يعترض .

فالرسول ﷺ من خلال هذا الموقف ينبه الصحابة إلى أنه بشر ، فيبين لهم أن بشريته تقتضى أنه يصاب بما يصاب به البشر ، وأن ذلك التعب يستلزم مضاعفة الأجر .

---

(١) والوعك : بسكون العين وفتحها : الحمّى وقيل ألمها وتعبها، وقيل: هو إرعاد الحمى وتحريكها إياه ، وقيل شدة الحر ، فكأنه أراد حرّ الحمى وشدتها ، وقيل : الوعك : الألم يجده الإنسان من شدة التعب . [عمدة القاري ٢١/٢١١] .

٤- أنه ﷺ يعتريه النسيان كسائر البشر

(عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَمْسًا فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَزِيدَ فِي الصَّلَاةِ ؟ قَالَ وَمَا ذَاكَ ؟. قَالُوا صَلَّيْتَ خَمْسًا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَذْكُرُ كَمَا تَذْكُرُونَ وَأَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ ثُمَّ سَجَدَ سَجْدَتَيِ السَّهْوِ) [١] ، الحديث فيه مراعاة لمقتضى الحال ، وقد جاء فى بنية الحوار العالى المستوى ، حيث إنه ﷺ عندما كان يصلى الظهر [٢] حدث أن صلاها خمس ركعات ، فبادره الصحابة بالسؤال : أزيد فى الصلاة ؟ فيعقب الرسول ﷺ سؤالهم بسؤال " وما ذاك ؟ " ويجيبونه " صليت خمسا " وفى هذا الحديث جملة من البلاغة، فقول الصحابي " صلى بنا رسول الله ﷺ خمسا " جملة خبرية خبرها ابتدائى خال من التوكيد وفى الكلام إيجاز بحذف المفعول تكفلت إحدى الروايات ببيانه ، إذ التقدير : صلى بنا رسول الله الظهر خمساً ، وفى " فقلنا " العطف بالفاء أفاد السرعة إلى السؤال وطلب الإيضاح ، وفى إسناد القول إلى " نا " الفاعلين مجاز عقلى علاقته إسناد فعل البعض إلى الكل ، كما فى قوله تعالى ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [٣] ، وترجع بلاغة المجاز هنا إلى الدلالة على أن السؤال كان متوقعا من كل من حضر الصلاة ، وهو ما يكشف حرصهم على تحصيل البيان ،وجاء تقديم النداء على السؤال كى يلفت الأنظار ، ويستحث النفس إلى الانتباه إلى ما بعده ،مستخدما " يا " التى لنداء البعيد غالبا ، وهو حاضر معهم

---

(١) صحيح مسلم ٢٣١/١ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب : السهو فى الصلاة والسجود له .

(٢) لما رُوى عن عبد الله أن النبيﷺ صلى الظهر خمسا ، فلما سلم قيل له : أزيد فى الصلاة ؟... " .

(٣) الأعراف: ٧٧ ، قال الزمخشري : " أسند العقر إلى جميعهم ؛ لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم ، وقد يقال للقبيلة الضخمة : أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم " الكشاف ٧٢/٢ .

جالس أمامهم، تعظيما لشأنه ﷺ تنزيلا لبعد المنزلة منزلة بعد المكان ،وإنما نادوه بوصف الرسالة، لأنهم أرادوا البيان والتوضيح ، وهو من مفردات الرسالة التى أمره الله بتبليغها للناس ، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (١) ، والإضافة فى " رسول الله " تفيد التشريف (٢) ، وقولهم " أزيد فى الصلاة ؟ " جاء الاستفهام بالهمزة ، وهى هنا لطلب التصديق ؛ لأن المسئول عنه هو النسبة ، فإذا أجيب بـ " نعم " حصل التصديق بوقوعها ، وإذا أجيب بـ " لا " حصل التصديق بعدم الوقوع ، وقول النبي ﷺ " وما ذاك ؟ " استفهام يستكشف به الدافع وراء سؤالهم ، وكأنه يقول : ماذا حدث حتى سألتم هكذا ؟ فجاء الجواب " صليت خمسا " وهنا ينتهز النبي ﷺ الفرصة ويعلمهم أنه بشر ، قاصدا من وراء ذلك أن ينبههم إلى ما تقتضيه طبيعته البشرية ، والنبي ﷺ يقتبس من القرآن ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ثم يذكر من مقتضيات البشرية ما يتناسب مع الموقف ، فيقول (أذكر كما تذكرون وأنسي كما تنسون) فدل على ما تقتضيه البشرية بأبرز صفات الإنسان وخصوصياته ، والتشبيه واقع فى الأمور غير الشرعية ، وفى هذا القول (دليل على جواز النسيان عليه ﷺ في أحكام الشرع ، وهو مذهب جمهور العلماء ؛ وهو ظاهر القرآن والأحاديث ، واتفقوا على أنه ﷺ لا يقر عليه ؛ بل يعلمه الله تعالي به.... وهو الصحيح فإن السهو لا يناقض النبوة، وإذا لم يقر عليه لم تحصل منه مفسدة ؛ بل تحصل منه فائدة، وهى بيان أحكام الناسي وتقرير الأحكام، أما السهو في الأقوال البلاغية فأجمعوا على منعه ، كما أجمعوا على امتناع تعمده، وأما السهو في الأقوال الدنيوية ، وفيما ليس سبيله البلاغ من الكلام الذي لا يتعلق بالأحكام ولا

---

(١) المائدة :٦٧ .

(٢) ينظر : الكشاف ٣/ ٢٢٥ .

أخبار القيامة وما يتعلق بها ولا يضاف إلي وحي ، فجوزه قوم إذ لا مفسده في ذلك[١] .

٥- أنه ﷺ يفعل الأفضل ولو حلف على فعل المفضول .

(عَنْ أَبِى مُوسَى الأَشْعَرِىِّ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِىَّ ﷺ فِى رَهْطٍ مِنَ الأَشْعَرِيِّينَ نَسْتَحْمِلُهُ فَقَالَ: وَاللَّهِ لاَ أَحْمِلُكُمْ ، وَمَا عِنْدِى مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ، قَالَ فَلَبِثْنَا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أُتِىَ بِإِبِلٍ فَأَمَرَ لَنَا بِثَلاَثِ ذَوْدٍ غُرِّ الذُّرَى ، فَلَمَّا انْطَلَقْنَا قُلْنَا - أَوْ قَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ - لاَ يُبَارِكُ اللَّهُ لَنَا ، أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَسْتَحْمِلُهُ فَحَلَفَ أَنْ لاَ يَحْمِلَنَا ثُمَّ حَمَلَنَا. فَأَتَوْهُ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ : مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ حَمَلَكُمْ ، وَإِنِّى وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ ثُمَّ أَرَى خَيْرًا مِنْهَا إِلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِى وَأَتَيْتُ الَّذِى هُوَ خَيْرٌ) [٢] ، فالرسول ﷺ فى هذا البيان الشريف يؤكد عزمه على فعل الأفضل ، ولو حلف أن يفعل المفضول ، وهذه خاصية من خصوصيات البشر ، ينبغى أن يتحلى بها المسلم ، فالمسلم يجب أن يكون رجّاعاً إلى الحق ، فإذا أقسم على ترك أمر من الأمور ، ثم رأى أن إتيان هذا الأمر يعود بالخير عليه وعلى مجتمعه وعلى دينه وأسرته ، فلا

---

(١) " قال القاضي رحمه الله : والحق الذي لا شك فيه ترجيح قول من منع ذلك على الأنبياء في كل خبر من الأخبار ، كما لا يجوز عليهم خلف في خبر لا عمدا ولا سهوا ، لا في صحة ولا في مرض ولا رضاء ولا غضب ، وحسبك في ذلك أن سيرة نبينا ﷺ وكلامه وأفعاله مجموعة معتنى بها على مر الزمان ، يتداولها الموافق والمخالف ، والمؤمن والمرتاب ، فلم يأت في شيء منها استدراك غلط في قول ، ولا اعتراف بوهم في كلمة ولو كان لنقل كما نقل سهوه في الصلاة ، ونومه عنها ، واستدراكه رأيه في تلقيح النخل ، وفي نزوله بأدنى مياه بدر ، وقوله ﷺ : والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا فعلت الذي هو خير وكفرت عن يميني ، وغير ذلك وأما جواز السهو في الاعتقادات في أمور الدنيا فغير ممتنع " صحيح مسلم بشرح النووى ٥/٦٢ .

(٢) صحيح مسلم ٢/٢٣ كتاب الأيمان ، باب : ندب من حلف يمينا فرأى غيرها خيرا منها أن يأتى الذى هو خير ويكفر عن يمينه .

بد أن يأتى الذى هو خير ويكفر عن يمينه ، والنبي ﷺ بهذا الخلق يؤكد بشـــريته ، كما يؤكد من خلاله تقويم سلوك المؤمنين ونجاح مصيرهم ، وهو عامـــل نفســـي يتحرك به البيان الشريف على هذا النحو القويم والمنهج السديد ، وعلى أحكم مـــا يكون البيان دقة فى النسق ، وإحكاما للأمور ، وموافقة للداعى المثير تـــأثيرا فـــى القلوب ، وتحقيقا للمنفعة ودفعا للمضرة ، وقد بدأ الحديث بألفاظ التوكيد " إنى والله " ليؤكد عزمه على فعل الأفضل ،ولو حلف على فعل المفضول ،وجـــاء قولـــه " إن شاء الله " تأدبا منه واعتزازا بمشيئة الله ،ليلطف من شدة الحزم التى تـــدل علـــى كمال الثقة فى النفس ،والتى تفهم من " إنّ " والقسم ، وكأنه يقـــول هـــذه نيتـــى الأكيدة ومشيئة الله تحرسها ، وقوله " لا أحلف .. إلا كفرت " [١] أسلوب قصر يدل على فعل الأفضل من الأمرين ، وقد لا يحلف ﷺ ويرجع إلى الأفضـــل ، لأنـــه ﷺ لا يأتى الأدنى ، فدل بالحلف على ما دونه ، وهو بهذا يحمل أمته على سلوك المنهج الأمثل لما فيه الخير ، وقد جاء هذا التشريع الرشيد فى القرآن الكريم ، قال تعـــالى ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [٢] ، فقد نزلت فى أبى بكر عندما أقسم أن يمنع عطاءه عن مسطح ابن خالتـــه ،وكـــان فقيرا من فقراء المهاجرين لأنه خاض فى عرض السيدة عائشة مع مَـــنْ خـــاض ، فلما نزلت هذه الآية قال أبو بكر:بلى أحب أن يغفر الله لى، ورجـــع إلـــى مســـطح نفقته،وقال: والله لا أنزعها أبداً[٣].

---

(١) وكفارة اليمين يوضحها لنا قوله تعالى ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ المائدة : ٨٩ .

(٢) النور :٢٢ .

(٣) يراجع الكشاف ٦٧/٣ .

هكذا من خلال الأسلوب المباشر وغير المباشر ، أكد لنا النبي ﷺ بشريته ، لكن ينبغى أن نؤكد على أنه وإن كان بشراً ، فهذا لا يعطى لغيره من البشر أن يصفه بنقص بشري، ومن تسول له نفسه ذلك فعليه أن يتذكر قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ وما يتأتى قط أن يوحى الله إلى بشر إلا إذا أصبح وكأنه قطعة من النور؛ صفاء نفس ، وطهارة قلب ، وتزكية روح ، هذا بالإضافة إلى ما ذكاه الله به ومدحه به من قوله ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [١] ، فهذه الأمور ترفع المصطفى ﷺ إلى قمة الكمال البشري ، والذى لم يتهيأ لبشر إلا له ﷺ .

---

(١) الآيات على الترتيب : النجم :٣ ، الشرح :١ ، الطور :٤٨ ، الحجر :٩٥ ، القلم : ٤ .

المبحث الرابع

حديثه ﷺ عن صلته بربه

فى البداية نشير إلى شيء من الصلة الإلهية برسول الله ﷺ ، فقد أعلى الله من شأن نبيه ﷺ حيث ذكره فى أول الأنبياء ، وإن كانت بعثته متأخرة ، قال تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ (١) ، وجعل الله طاعة الرسول من طاعته تعالى ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (٢) ، وجعل علامة حب الله طاعة الرسول ﷺ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (٣) ، وكشفت الآيات عن مهمته ﷺ السامية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ (٤) ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٥) ، ولهذه المعانى كانت معاملة المسلمين له ﷺ لا بد وأن تكون خاصة ﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ (٦) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ

---

(١) الأحزاب :٧ .
(٢) النساء :٨٠ .
(٣) آل عمران :٣١ .
(٤) الأحزاب : ٤٥-٤٦ .
(٥) الشورى :٥٢-٥٣ .
(٦) النور آية :٦٣ .

كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ [١] ، وأن يكون ﷺ الأسوة والقدوة والمثل الأعلى لهم ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [٢] .

هذه لمحات تكشف منزلة النبي ﷺ بالنسبة إلى ربه ، أما عن صلته ﷺ بخالقه ومولاه ، فقد كشف بيانه الشريف عن أنه ﷺ كان متصلا بربه دائما ، شديد الخشية له ، كثير التوبة والاستغفار إليه وغير ذلك ، وسوف نعرض لهذه المعانى وفق ما جاءت فى البيان الشريف .

١- **اتصاله ﷺ الدائم بربه** ، ففى صحيح مسلم عن أبي هريرة (نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْوِصَالِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: فَإِنَّكَ يا رسول الله تُوَاصِلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَأَيُّكُمْ مِثْلِي؟ إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي) [٣] ، والحديث به جملة من البلاغة ، فقول الصحابي " نهى رسول الله ﷺ عن الوصال " إشارة إلى ما روى (عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال : لا تواصلوا ...) [٤] ، وحقيقة الوصال: هو أن يصل صوم يوم بصوم يوم آخر من غير أكل وشرب بينهما [٥] ، وحكى فى حكمه ثلاثة أقوال : التحريم والجواز وثالثها أنه يواصل إلى السحر [٦] ، والأول أولى لأن الله غنى عن تعذيب عباده ، خاصة أن الوصال يترتب عليه الضعف والعجز عن المواظبة على كثير من وظائف الطاعات [٧] ، والملاحظ أنه ﷺ كان يواصل ، لذلك

---

(١) الحجرات آية :٢ .

(٢) الأحزاب الآية :٢١ .

(٣) صحيح مسلم ٤٤٥/١ كتاب الصوم ، باب النهى عن الوصال فى الصوم .

(٤) صحيح البخارى ٤٥١/١ حديث رقم : ١٩٦١ كتاب الصوم ، باب الوصال .

(٥) وهذا هو الصواب فى تحقيق الوصال ، وقيل هو الإمساك بعد تحلة الفطر .

(٦) عمدة القاري ٧٣/١١ .

(٧) فلا نترك أو نقصر فى واجب بسبب التطوع ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ففى الإسلام أوقات فاضلة أباح الشارع كثرة الطاعات فيها ومنها الصوم .

عندما نهى أصحابه عن الوصال " قال رجل من المسلمين : فإنك يا رسول الله تواصل " وهذا منه لبيان الحكمة لا غير ، فحاشا للصحابة الكرام أن يعترضوا على فعل رسول الله أو قوله [١] ، كما يلاحظ عدم تحديد السائل إذ لا أهمية وراء معرفته ، ولا حاجة للناس به ، فالسؤال هو المقصود ، وجاءت إجابته ﷺ غاية فى الدقة والإحكام ، فقوله ﷺ " وأيكم مثلى ؟ " تصوير أدبي رائع عن كراهة الوصال فى الصوم ، سواء أكان فرضا أم نفلا ، وذلك من خلال ما يوحى به الاستفهام " أيكم مثلي؟ " ليدل على الإجابة منهم : لسنا مثلك يا رسول الله ، فأنت المصطفى من بين الخلق، والخلق أتباعك ، وفرق بين المتبوع والتابع عند الله وعند الناس ، كما يدل على معانى التقريع والتوبيخ لمن غفل عن أنه رسول الله ، فسأل عن علة نهيه ﷺ مع وقوعه منه ، وجاءت الواو فى " وأيكم " لتدل على المحذوف ، إذ التقدير : هذا شأنى وأيكم مثلى؟ [٢] ، وكأن جملة " وأيكم مثلي " تمهيد لما بعدها من معنى ، وهو ما جاء فى قوله ﷺ "إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى " ، وروى " الفريابى ت ٣٠١هـ " : " إن أبيت عند ربى " [٣] وهو أسلوب خبرى معتمد على التأكيد لغرابة الخبر ، حيث استخدم الحرف " إن " الذى أضيف إلى ياء المتكلم لإفادة الخصوصية " ثم جاء الفعل " أبيت " الذى يدل على التجدد والحدوث ، ليؤكد أن هذا الأمر هو ديدنه ﷺ فى علاقته بربه ، فهو متصل بربه دائما ، إنه فى السماء على الدوام ،

---

(١) قال العيني " فإن قلت كيف يحسن قولهم له بعد النهي عن الوصال فإنك تواصل وهم أكثر الناس آدبا؟ قلت: لم يكن ذلك على سبيل الاعتراض ، ولكن على سبيل استخراج الحكم أو الحكمة أو بيان التخصيص " عمدة القاري ٧٢/١١ .

(٢) فظهرت أهميتها فى بلاغة الحذف الذى يحتاج إدراكه إلى تأمل وطول نظر ، حتى إذا ما انتهى الإنسان إلى معرفة المراد استقر فى النفس فى حالة من الجمال والمتعة بعد المعاناة والمشقة .

(٣) الصيام للفريابى تح/ عبد الوكيل رياض ١٦/١ ، الدار السلفية ، بومباى – الهند ١٤١٢هـ .

وهو متصل بالبشر ليؤدى رسالة السماء كاملة غير منقوصة ، إنه على حد تفسير القرآن له ﴿ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[١] ، فهو ببشريته مع الناس وهو بسرِّه مع الله[٢] ولما كان ﷺ ينشغل فى النهار بنشر الدعوة ، ويتفرغ فى ليله لعبادة ربه ، كان الفعل " أبيت " دقيقا فى أداء المعنى [٣] ، فقد كان ﷺ يبيت ليله كله فى عبادة الله ، حتى تورمت قدماه ، ثم نلحظ الظرف " عند " مضافا إلى كلمة " رب " المضافة إلى ياء المتكلم لتحديد موضع البيت بأنه عند مولاه الذى رباه ويتولاه ، وأثر ﷺ " أبيت " دون أظل مثلا ، لأنه يقال: بات يفعل كذا.... أى : ظل يفعله ليلا ، وظل يفعل كذا إذا فعله نهارا [٤] .

وانظر إلى التوازن الموسيقي الذى يشد الانتباه ، ويثير العواطف ، ويعمر الوجدان عن طريق التعادل بين " يطعمنى ويسقينى " وإسناد إطعامه وسقيه إلى ربه يفيد أنه طعام وسقيا لا على صورة طعامنا وسقيانا [٥] ، وتباينت أقوال العلماء فى المراد بـ " يطعمنى ربي ويسقينى " فقيل : إن معناه أى يطعمنى ربي ويسقين لاعلى صورة طعامكم وسقياكم ، وإن كان يشترك معه فى بعض خصائصه ، فى أنه يزيل الجوع ويشبع النفس ؛ لأن الله تعالى يفيض عليه ما يسد مسد طعامه وشرابه من حيث إنه يشغله عن إحساس الجوع والعطش، ويقويه على الطاعة ويحرسه

---

(١) الإسراء : ٩٣ .

(٢) ينظر الرسول ﷺ لمحات من حياته وأنوار من هديه د / عبد الحليم محمود ص :١١ .

(٣) إذ يقال : بات الرجل : إذا سهر الليل كله فى طاعة الله أومعصيته

(٤) قال الليث: البيتوتة دخولك في الليل ، يقال بت أصنع كذا وكذا قال ... ومن قال بات فلان إذا نام فقد أخطأ ألا ترى أنك تقول بت أراعي النجوم ؟ معناه بت أنظر إليها ، فكيف ينام وهو ينظر إليها " [لسان العرب ٥٤٦/١ بيت] .

(٥) وفى الكلام إشارة إلى قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام ﴿ والذى هو يطعمنى ويسقين ﴾ الشعراء :٧٩ .

عن تحليل يفضى إلى ضعف القوى وكلال الحواس[١] ، واعترض صاحب " المفهم " على هذا ، قال : إن هذا القول يبعده النظر إلى حاله ﷺ والنظر إلى المعنى ، فبالنسبة إلى حاله ﷺ كان يجوع أكثر مما يشبع ، ويربط على بطنه الحجارة من الجوع ،وبالنسبة إلى المعنى ، فإنه لو خلق فيه الشبع والرى لما وجد لعبادة الصوم روحها الذى هو الجوع والمشقة، وحينئذ يكون ترك الوصال أولى [٢]، وقيل : إن المعنى أنه ﷺ يعطى قوة الطاعم والشارب [٣] وهو الأولى بالقبول لسلامته من الاعتراض ، وأخيرا جاءت هذه المعانى بالجملة الاسمية التى تأتى دائما مع الحقائق الثابتة لتؤكدها .

٢-شدة خشيته ﷺ لله تعالى

(عَنْ عُمَرَ بْنِ أَبِى سَلَمَةَ أَنَّهُ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُقَبِّلُ الصَّائِمُ ؟ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَلْ هَذِهِ لأُمِّ سَلَمَةَ ، فَأَخْبَرَتْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ ذَلِكَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّى لأَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وَأَخْشَاكُمْ لَهُ) [٤] ، فكأنه لاح من كلام الصحابي أنه ﷺ يفعل ما يشاء ويحلو له ما دام أن الله قد غفر له ذنوبه ، فلكي يقطع ﷺ كل الأبواب

---

(١) قال العيني " فإن قلت هل يجوز أن يكون المعنى على ظاهره بأن يرزقه الله طعاما وشرابا من الجنة ؟ قلت: قد قيل ذلك ولا مانع منه ؛ لأنه أكرم على الله من ذلك ، فإن قلت: لو كان المعنى على حقيقته لم يكن مواصلاً ، قلت: طعام الجنة وشرابها ليس كطعام الدنيا وشرابها ، فلا يقطع الوصال ، وقيل هو من خصائصه لا يشاركه فيه أحد من الأمة " [عمدة القاري ٣٠٠/١٠] .

(٢) وقيل : إن الله تعالى يحفظ عليه قوته من غير طعام وشراب ، كما يحفظها بالطعام والشراب ، فعبر بالطعام والشراب عن فائدتهما وهى القوة .

(٣) ينظر: عمدة القاري ٧٢/١١ .

(٤) صحيح مسلم٤٤٨/١،كتاب الصوم، باب: أن القبلة فى الصوم ليست محرمة على من لم تحرك شهوته.

المؤدية إلى هذا المعنى أتى بأساليب التوكيد المتنوعة ، لينبه إلى أهمية ما بعده من كماله ﷺ فى التقوى والخشية لله ، وأنه ما يكون له أن يتساهل فى أمر الله اغترارا بفضل الله عليه ، لذلك نراه يقول (مَا بَالُ رِجَالٍ بَلَغَهُمْ عَنِّى أَمْرٌ تَرَخَّصْتُ فِيهِ ، فَكَرِهُوهُ وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ ، فَوَاللَّهِ لأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً) [١] ، والمتأمل لأسلوبه ﷺ يجد أنه يتسم بجهارة الصوت ، والنبرة العالية التى تعكس خطر الأمر ، وذلك بأسلوب مؤكد غاية التوكيد ، ويحمل عناصر التنبيه والإثارة ، حتى يضمن متابعة المخاطب لمضمونه ، فجاءت " أما " وهى حرف استفتاح مثل " ألا " وكثر قبل القسم [٢] ، ثم جاء القسم الذى يوحى بأهمية الأمر، ولذا يؤتى به حيث يراد تمكينه وتقريره فى نفس المخاطب ، والمقسم به هنا هو لفظ الجلالة " الله " الجامع لصفات الجمال والجلال ، وفى هذا ما فيه من تربية المهابة ، واستحضار عظمة الله وجلاله وقهره وسلطانه،فهو الاسم الجامع لأسماء الله الحسنى وصفاته العليا[٣]،ثم جاء تأكيد آخر بـ" إن " التى جاء اسمها ضمير المتكلم الدال على ذاته الشريفة ﷺ ، ثم جاء المقسم عليه " لأتقاكم " مؤكدا باللام ، وصيغة التفضيل مضافا إلى علامة الجمع " كم " للتأكيد على إثبات كمال القوة العملية ، ثم جاء لفظ " الله " ليحدد ويخصص جهة تقواه من ناحية ، وليشير إلى شيء مما يختص به هذا الاسم الكريم، وهو أنه إذا حذف منه حرف ، فإن هذا الحذف لا يغير من معناه شيئا ، قال

---

(١) صحيح مسلم ٣٣٦/٢ ، كتاب الفضائل ، باب : علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته .

(٢) ينظر : الجنى الدانى للمرادى تح / قباوة ص :٣٩٠ ، ط دار الكتب العلمية – بيروت .

(٣) قال ابن القيم : اسم «اللّه» دال على كونه مألوها معبودا ، تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضوعا ، ومفزعا إليه في الحوائج والنوائب ، فصفات الجلال والجمال أخص باسم اللّه ، وقد جرت عادة الناس أن يقسموا بما هو معظم عندهم حين يرون عظم الأمر المقسم عليه ، وليس هناك ما هو أعظم من الله تعظيما وتقديسا .

تعالى﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [١] ، ثم جاء الوصل بعطف (وأخشاكم لـــه) على (لأتقاكم لله) للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، فكل منهما خبرية لفظـــاً ومعنى ، وهذا العطف يفيد كماله ﷺ فى كل صفة منهما ، ولفظ (له) قيل: الهـــاء أصل الكناية ؛ لأنها دالة على الغيبة ، وهو سبحانه الغائب عن أن تدركه الأبصار ، أو تحيط به الأفكار ، وزيد على الهاء لام الملك ، ثم مد بهما الصوت تعظيماً ، ثـــم ألزم اللام المعرفة ، فهو لا يخفى على أحد ، ومعرفتنا له عرضية وليست ذاتية .

٣- كثر استغفاره ﷺ وتوبته إلى الله

(عَنِ الأَغَرِّ الْمُزَنِىِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِى وَإِنِّى لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِى الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ) [٢] ، و(عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال سَمِعْتُ رَسُـــولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: وَاللَّهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً) [٣]

النبي ﷺ يصور لنا جانبا من علاقته بربه عز وجل ، فقد كانت له أحـــوال كثيرة مع الله ، بل كان كله لله ومع الله ، ومع ذلك كان ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه ليعلمنا ولنقتدى به، ونحن فى أشد الحاجة إلى التوبة والاستغفار ، وهذه المعـــانى السامية التى اشتمل عليها البيان الشريف جاءت من خلال أساليب بلاغية متنوعة ، وكان من أبرزها التأكيد بأدوات مختلفة ، وتبرز قيمة التأكيد فى بيان أهمية التوبة والاستغفار ، والحض عليهما على سبيل التشريع ؛ لتقويم المنهج فيـــه بالســـلوك الحميد والعمل الصالح ، ففى حديث " الأغر " نجد حرف التوكيد " إن " مضافا إلـــى

---

(١) البقرة :٢٨٤ . ومن خصائصه أيضا أن التلفظ به يبدأ من أقصى الحلق بالألف ، ثم الوصول إلى طرف اللسان باللام ، ثم العود إلى أقصى الحلق بالهاء ، وفى ذلك إشارة إلى أن النهاية رجوع إلى البداية فكل شيء منه وإليه .

(٢) صحيح مسلم ٤٧٤/٢ ، كتاب : الذكر الدعاء والتوبة والاستغفار ، باب :استحباب الاستغفار والاستكثار منه .

(٣) صحيح البخارى ٢٨٥/٣ ، باب استغفار النبى ﷺ فى اليوم والليلة .

ضمير الشأن ، أى أن الشأن فى نفسه ﷺ أنه على سبيل التأكيد يسعى دائما إلى أعلى درجات السمو فى المقام الربانى العالى بالاستغفار الدائم ، ثم نجد لام التوكيد فى قوله " ليغان " والمراد بالغين هنا (ما يغشاه من السهو الذي لا يخلو منه البشر لأن قلبه أبدا كان مشغولا بالله تعالى فإن عرض له وقتا ما عارض بشري يشغله من أمور الأمة والملة ومصالحهما عد ذلك ذنبا وتقصيرا فيفزع إلى الاستغفار) [١]، وخص الغين بالقلب لأنه العماد فى الأمر كله ، ولما كان الغين يمنع صاحبه لحظة وجيزة من الاتصال بالخالق والرقي فى درجات الكمال ، جاءت " على " لتدل على ما تشعر به من العلو المؤذن بالضرر ، ثم نلحظ تكرار التأكيد بذكر " إن " مضافة إلى مقام الرسول ﷺ ليزداد المعنى بها تأكيداً ، وتتكرر لام التأكيد مرة ثانية مع قوله " لأستغفر " مع ذكره لفظ الجلالة الذى يزيده إجلالا وتأكيدا ، ثم التأكيد بحروف الطلب " الألف –السين – التاء " فى " لأستغفر " وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، ثم ما يفيده التقييد بالجار والمجرور والظرفية الدالة على زمن الاستغفار ليكون فى كل يوم ، لا يند عنه يوم (فى اليوم) حتى يعلم كل مؤمن أنه ﷺ يفعل هذا فى اليوم الواحد ، ويكرر هذا ما دامت الحياة وهو نبي طاهر مطهر ، فكيف بالذين يعيشون الحياة ولهم فيها زلات وزلات ، فهذا القيد دافع لكل مؤمن أن يتيقظ لأوقاته ،وأن يعايش لحظاته بالإنابة وطلب الغفران ليحاسب الإنسان نفسه قبل نومه فى الموتة الصغرى، فيطهر روحه قبل أن تصعد إلى باريها فى الموتة الكبرى، وأخيرا دلالة صيغة " مائة مرة " على الإطلاق لا التحديد لهذا العدد وهو مائة مرة ، بل هى كناية عن كثرة الاستغفار ، أما رواية البخارى والتى استهلت

---

(١) لسان العرب ١٠/١٦٢و ١٦٣ غين ، وذهب معظم العلماء إلى أن الغيون هنا هو غيون الأبرار لا غيون الأوزار ، فغيون قلبه ﷺ هو تجليات ربانية ، وترقيات محمدية نبوية يرتقى بها إلى المقام الأعلى فى السمو والرفعة ليشعر بأكثر من ذلك السمو ، فيستغفر ربه ليزداد سموا فى المقام العالى .

بالقسم بلفظ الجلالة ، حيث قُدِّم القسمُ بالاسم الأعظم " الله " وهذا لا يكون إلا فى الخبر الذى أراد المتكلم أن يؤكده لأهميته ، ثم إننا لنرى أداة التوكيد "إن " وجاء الضمير ياء للمتكلم لذاته الشريفة ، وذلك ليهتم المخاطب بما يقوله ﷺ ، وليعلم علم اليقين أن الله قد شرع الاستغفار وطلب المتاب ؛ ليكون العبد دائما ذاكرا لمولاه متواصلا معه بالتوبة والاستغفار ، ولعل سائلا يسأل : لماذا هذا التأكيد المتنوع وهو ﷺ مصدق ؟ أجيب : لأن المخاطب نزل منزلة المنكر ، حيث يرى أنه ﷺ قد غفر له ربه ما تقدم من ذنبه وما تأخر ،فكيف يقع منه هذا الاستغفار وهذا المتاب بهذا العدد فى اليوم الواحد ، ولذا نُزل المخاطب منزلة المنكر ، وإن كان الخطاب هنا لكل واحد من أهل الإيمان .

وعطف ﷺ قوله " وأتوب إليه " على قوله " أستغفر الله " للتوسط بين الكمالين مع عدم المانع ، وقدم الاستغفار على المتاب ؛ لأن الاستغفار للجميع سواء أكان عن ذنب أم تقصير أم بدونهما ، أما المتاب فإنه غالبا ما يكون عن ذنب ، ولذا يكون هذا الوصل من باب عطف الخاص على العام ، وفيه اهتمام بالخاص ، وقوله فى نهاية الحديث " أكثر من سبعين مرة " المقصود بالعدد هنا الكثرة ، ويؤيده رواية مسلم " مائة مرة " ،وهذا يرجح أن العدد لا مفهوم له ، والمراد أن يكثر العبد المؤمن من الاستغفار والمتاب على الدوام ، فإن كان مسيئا عافاه الله ، وإن كان ذاكرا لمولاه رفعه وتولاه .

والبيان الشريف هنا يستمد بلاغته من الإعجاز القرآنى فى التوبة والاستغفار ، قال تعالى ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [١] وقال ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [٢] ، والاستغفار سبب لتفريج

---

(١) النصر :٣ .

(٢) آل عمران : ١٥٣ .

الكروب وسعة الرزق ، قال تعالى ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ (١) ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ (٢) ، والتوبة تكفر السيئات وتبدلها بالحسنات مضاعفة حسب الإخلاص فيها ، قال تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ (٣) ، وفى النهاية ننبه إلى أنه ﷺ بهذا البيان يعلمنا كيفية الطهارة النفسية من الأدناس المعنوية ، والعلائق الشيطانية ، والرعونات الشهوانية ، وهو ﷺ منها براء ، إلا أنه مشرع من لدن مولاه ، فكان استغفاره وتوبته إعلاء لدرجاته عند رب العالمين ، والكمالات عند الله لا تتناهى ، وقد أعطانا ﷺ هذه المعانى السامية فى صور من التراكيب الموجزة والتى لا تتعدى فى النظم سطراً واحداً ، وهذا من خصائص بلاغته ﷺ فهو القائل " أوتيت جوامع الكلم " .

---

(١) نوح :١٠-١٢ .

(٢) هود :٥٢ .

(٣) الفرقان :٧٠ .

المبحث الخامس

حديثه ﷺ عن صلته بأمته

كشفت الأحاديث النبوية عن منزلته ﷺ بين أمته ، ومكانتها لديه ، كما أوضحت رحمته ﷺ بأمته وإشفاقه عليها ، ورغبته الصادقة فى التخفيف عنها ، كما أبانت عن مهمته ﷺ تجاه أمته إلى غير ذلك من المعانى .

١- منزلته ﷺ بين أمته ومكانتها لديه .

(عَنْ أَبِى مُوسَى عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ : إِنَّ مَثَلِى وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِىَ اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ فَقَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّى رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَىَّ ، وَإِنِّى أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ ، فَالنَّجَاءَ. فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا ، فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِى ، وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِى وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ) [١] ، فالنبي ﷺ يتحدث عن نفسه ، ويبين لنا مكانته ومنزلته بين أمته ، حيث يصور من خلال هذا الحديث مدى حبه لها ، وحرصه على هدايتها، وخوفه من ضلالها عن الطريق المستقيم ، فهو يسوق هذه المعانى عبر الصورة البيانية التشبيهية التمثيلية المركبة [٢] ، إنه التمثيل الذى فيه كشف المعنى برفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، فالرسول ﷺ يشبه حاله حينما يدعو قومه إلى ما جاء به من الهدى والرشاد مبشراً بالجنة ، ومنذراً من النار ، برجل مؤتمن وقف ناصحاً قومه من غائلة جيش

---

(١) صحيح مسلم ٣١٤/٢ كتاب الفضائل ، باب : شفقته ﷺ على أمته ومبالغته فى تحذيرهم مما يضرهم .

(٢) فمن بلاغته أنه يسوق الأمثال فى قضية مضربه محتذ على مثال ما تحتكمه وتستدعيه ، لعل الذين عادتهم الإنصاف ، والعمل على العدل الاستجابة ، والنظر فى الأمور بنظر العقل ، إذا سمعوا بمثل هذا المثل علموا أنه الحق الذى لا تمر الشبهة بساحته ، والصواب الذى لا يرتع الخطأ حوله [ينظر: أسرار البلاغة :١٢١] .

مستطير يريد أن يدهمهم ، ويفتك بهم ويقضى على حياتهم ، ويذيقهم الهوان والغصص القاتلة ، فهو يطلب منهم أن يأخذوا حذرهم حتى لا يتحقق له مأرب ، وانقسم الناس بصدد دعوته تلك إلى مجيب ومعاند ، ، أما المجيب فأخذ حيطته ، وأعد عدته وعمل على نجاة نفسه ، فكتبت له النجاة ، وأما المعاند فلقد انزلق فى عناده ، فلم يستجب لنصح ولم يصغ لموجه ، حتى صبحه الجيش فأهلكه واستأصله، إنه تشبيه تمثيلى جاء مثلا ليبين عاقبة من عصى ، وجزاء من أطاع ، ولكى يحقق التشبيه أقصى غاياته البلاغية والفنية ، جاء نصه حافلاً بالكثير من الظواهر الأسلوبية ، ومن ذلك توظيف وسائل التوقيت والتى من بينها تقييد فعل الرؤية بكونه بالعينين " رأيت الجيش بعينى " فالرؤية لا تكون إلا بالعينين ، ولكن ذكر القيد تأكيدا للرؤية كقوله ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ [١] ، ومن ذلك أيضاً التأكيد بـ " إن " وأسلوب القصر فى " إنى أنا النذير العريان " كما نلحظ الكناية التى توقدت جذوتها ، فهى كناية عن أن الأمر بلغ أشده ، والإنذار بلغ منتهاه ، فالأمر جلل وخطب [٢] وهى صورة تمثل مدى حبه ﷺ لهذه الأمة أصدق تمثيل، لقد نزع هذا النذير ثوبه ، وأشار إليهم ليخبرهم بما سيدهمهم ، وإنما فعل ذلك لأنه كان بعيداً عنهم ، وهو بهذا الصنيع أبين للناظرين ، وأبلغ فى استحثاثهم للتأهب للعدو ، ولا مانع من أن يفيد أنا النذير الذى أدركنى الجيش العدو فأخذ ثيابى فأنا أنذركم

---

(١) ينظر: تحرير التحبير لابن أبي الأصبع تح / حفنى شرف ص : ٥٣٤ ، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) فالرسول ﷺ يصور نفسه فى خوفه على أمته بالنذير العريان ، مستخدما فى هذه الصورة أحد الأمثال العربية المشهورة ،وأصل هذا المثل أن رجلا من قبيلة خثعم رأى الأعداء قادمين على قومه ، وأراد إبلاغ قومه بذلك فتجرد من ثيابه وأشار إليهم كى يعلموا أن الغارة ستفجؤهم .

عريانا ، مما يدل على خطورة الموقف ، وشدة الأمر ، مما يستلزم أن يفيق المرء من غفلته حتى لا يلحقه الهوان والصغار .

ومن ذلك أيضا : إيثار حرف العطف " الفاء " فـى " فأطاعه طائفة .. فأدلجوا فانطلقوا " وفى المقابل " فصبحهم .. فأهلكهم " حيث يجسد هذا الحرف المفيد لمعنى الترتيب الفورى مدى سرعة حصول كل من الفريقين على مصيره الذى يستأهله .

بهذه الصورة البيانية التمثيلية بين ﷺ مكانته فى أمته ، إنه بشير نذير، وهو على سعادتهم حريص ، فمن أطاعه سعد ببشارته ، ومن عصاه وقع فى العقاب .

ومن ذلك أيضا ما روى (عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ : مَثَلي ومَثَلُكم كمثل رَجُلٍ أَوْقَدَ نَاراً فَجعَلَ الجَنَادِبُ والفَراشُ يَقَعْنَ فِيها ، وهو يَذُبُّهُن عَنها ، وأَنا آخِذٌ بِحُجُزِكُم عَن النَّار وأَنْتُم تَفَلَّتُوْنَ مِن يدي) [١] فالرسول يبين لنا منزلته كما يبين لنا حرصه الشديد على أمته ، فهو حريص عليهم يرغب فى أن يدخلوا الجنة ، وأن يكونوا بعيدين عن النار ، ولقد أكد القرآن هذا الحرص﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٢] ، وتتجلى بلاغته ﷺ فى هذا الحديث فى هذا المثل الذى يضربه لنفسه ولأمته ، حيث مثل ﷺ حال الجاهلين المعاندين المعرضين عن هديه المقبلين على المعاصى ، فأصموا آذانهم ، وأعموا أبصارهم ، فلم يسمعوا للخير الذى جاءهم به ، ولم ينظروا فى حرصه على هدايتهم ، ونجاتهم وإنقاذهم فتفلتوا من يده ، وكان مصيرهم النار ،

---

(١) صحيح مسلم٢/٣١٥ كتاب الفضائل ، باب : شفقته ﷺ على أمته ، ومبالغته فى تحذيرهم مما يضرهم.

(٢) التوبة :١٢٨ .

مثل ﷺ حالتهم هذه معه ، بحال ذلك الرجل الذى أوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله أقبل الجنادب والفراش يتساقطن فيها ، وتصدى الرجل لهن يذبهن ؛ لأنه أوقدها للانتفاع لا لإهلاك تلك الحشرات ، لكن الجنادب والفراش تساقطن فى النار فكان هلاكهن ، والجامع بين طرفى التمثيل اتباع الهوى وفقدان التمييز ، وحرص كل من الطائفتين على هلاك نفسه ، وسعيه فى ذلك لجهله ، إن التمثيل جاء هنا زيادة فى الكشف وتتميما للبيان ، وإبرازاً لخفيات المعانى حتى جعلنا نحس بأن المتخيل فى صورة المحقق ، والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ، مما فيه تبكيت للمعاند المخالف لأوامره ﷺ .

واستهلال الحديث بقوله " مثلى ومثلكم ... " فيه دلالة على أنه ﷺ يقص قصة عجيبة ، لها شأن ، و فيها غرابة ، وقد ظهر ذلك فى بيان التشبيه [١] ، وفى رواية البخارى (إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ ...) [٢] ، فبدأ الحديث بـ " إنما " التى تستخدم فى اللغة أحيانا للتوكيد ، بالرغم من لحوق " ما " بها والتى وإن كفتها عن الأثر الإعرابي إلا أنها لم تكفها عن معنى التوكيد ، وقوله " مثلى ومثلكم " يمثل الطرف الأول من المثل وهو الرسول وأمته ، ثم جاء بالطرف الثانى " كمثل رجل أوقد نارا " وهى جملة قرآنية ، قال تعالى ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [٣] وكأنى بالحديث بيان لما جاء بالقرآن ، وإن كان بصيغة أخرى ، ثم لننظر إلى روعة التعبير النبوى ، ففى قوله " فجعل الجنادب والفراش " تشنيع بهؤلاء المعاندين المعرضين عن الحق، وتقبيح

---

(١) الذى توقف فهم معناه على معرفة قوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وذلك أن حدود محارمه ونواهيه كما فى الحديث " ألا إن حمى الله فى الأرض محارمه " ورأس المحارم حب الدنيا وشهواتها .

(٢) صحيح البخارى ٣/٣٢٥ ، حديث رقم : ٦٠٠٢ ، كتاب الرقاق ، باب الانتهاء عن المعاصي.

(٣) البقرة :١٧ .

لهم، وتسفيه لأحلامهم [١] ، وقوله " يقعن فيها " ألحق بالفعل " يقع " نون النسوة ليلفتنا إلى أن المعنى المقصود هم البشر ، أو أفراد الأمة ، فنون النسوة تكون للمؤنث الحقيقى ، وإلا كان استخدام الفعل بتاء التأنيث الدال على اشتمال ما هو حقيقى وغير حقيقي ، وهو الأسلوب المعتاد فى الحديث عن غير الإنسان [٢] ، وقوله " وهو يذبهن عنها " وفى رواية " يذعهن " أى يدفع الفراش حتى لا تقع فى النار ، وهى جملة اسمية تدل على مهمته ﷺ فى دفع أمته عن النار ، وقوله " وأنا آخذ بحجزكم ... " التفات من الغيبة " مثلى ومثلكم " إلى الخطاب " بحجزكم " وفيها من البلاغة ما فيها ، حيث استحضار أمة الرسول ليكون التوجيه شاملا ، كما أن من أخذ فى حديث من له بشأنه عناية ، وهو مشتغل فى شيء يورطه فى الهلاك بجد لشدة حرصه على نجاته أنه حاضر عنده [٣] ، وفى قوله " وأنا آخذ بحجزكم "

---

(١) فهذه الحشرات مثل فى الوهن والضعف وعدم التمييز ، والفراش يضرب به المثل فى الخفة والحماقة والتهافت ، يقال : أطيش من فراشة ، فهى تقتحم النار لا لتهلك فيها ، بل لما يعجبها من ضوئها ، وكذلك الجاهلون المعرضون عن الحق يأتون ما يجرهم إلى النار بقصد المنفعة وإتباع الشهوات لا بقصد هلاكهم .

(٢) وقد يسال سائل : ماذا عن تشبيه الدين الذى جاء به ﷺ بالنار وهو النور من عند الله ؟ قيل : هذا ملمح بديع من ملامح البلاغة النبوية الراقية ، فالنار أصل النور ، أو أنها تحمل المعنيين معنى النور الذى يضئ وقد جاء ذلك فى رواية تفرد بها مسلم " فلما أضاءت ما حوله " ومعنى هذا أن النار تسبب النور الذى يضيء ، وفى الوقت نفسه تحرق من لا يهتدى بنورها ويصمم على اقتحامها ، وهو ما جاء فى الجزء الثانى من المثل ، ثم إن الدين الإسلامى يحمل المعنيين ، فمن يهتدى به ينجو ، ومن يخالفه يقع فى حوزة النار فيهلك .

(٣) وفيه إشارة إلى أن الإنسان إلى النذير أحوج منه إلى البشير ؛ لأن جبلتهم مائلة إلى الحظ العاجل دون الحظ الآجل .

استعارة تمثيلية [١] كثرت فيها الألفاظ الموحية ، ففى التعبير باسم الفاعل " آخـذ " إيحاء باستمرار هذا الأخذ وتواصله، وقوله "بحجزكم" إيحاء بتمكن الآخذ [٢] وقوله " عن النار " إيحاء بشدة قرب الخطر، فقد صاروا على وشك السقوط فى النار ، وهو آخذ بحجزهم للمنع من الهوى فيها ، وقوله " تفلتون من يـدى " إيحـاء بتـأبيهم ورفضهم الإنقاذ ، وإصرارهم على التمادى فى الضلال ، ففى التفلت منازعة الغلبة والهرب ، ومجيئه مضارعاً دليل على حدوث الغلبة والهرب ، وفى الأسلوب مقابلة معنوية لها أثرها فى تحريك وعى المتلقى ، وتنشيط ذهنه لما بين الأشياء من تقابل أو تضاد ، كما أنها تظهر تفانى الرسول ﷺ فى دعوته ، وحرصه على نجاة أمته ، ولقد صور القرآن ذلك ، فقال: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [٣] وقال: ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [٤] ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [٥] .

٢- مدى حبه ﷺ لأصحابه وحرصه عليهم ، وظهر ذلك فى .

أ – حبه لهم وحرصه على سلامتهم من آفة الافتتان بالدنيا حتى يتمكنوا من الشرب من حوضه، بيديه الشريفتين ، فـ (عَنْ أَبِى حَازِمٍ قَالَ سَمِعْتُ سَهْلاً يَقُولُ سَمِعْتُ النَّبِىَّ ﷺ يَقُولُ: أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ مَنْ وَرَدَ شَرِبَ وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا ...) [٦] ، فالنبي يتحدث عن نفسه من باب الحديث عن نعم الله عليـه ، فـالله فضـل حبيبه ﷺ ، وجعل له حوضا هو الكوثر ، على هذا الحوض وحوله يلتف النبي ﷺ ،

---

(١) حيث مثل ﷺ حال هؤلاء المعاندين وشدة حرصه على نجاتهم بحال رجل آخذ بحجزة صاحبه الذى يكاد يهوى فى مهواة مهلكة يحاول إنقاذه ، وهو يتأبي عليه ويتفلت منه ، وليس أمامه إلا السقوط فى الهاوية .

(٢) لأن الحجز جمع حجزة، وهى معقد الإزار من السراويل ، لقد أخذ بموضـع المنـع وأحكـم القبض عليه .

(٣) فاطر من الآية :٨ . (٤) الشعراء : ٣ . (٥) الكهف :٦ .

(٦) صحيح مسلم ٣١٦/٢ كتاب الفضائل ،باب: إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته .

وحوله أحبابه ومطيعوه ومريدوه ، وفى سبيل ذلك عبر ﷺ بهذا الأسلوب الذى كله فخر ومباهاة بفضل الله عليه ، والحديث يفيض بالكلمات المعبرة ، والألفاظ السيالة مما فيه مراعاة لمقتضى الحال ، فقوله " أنا فرطكم على الحوض " أى سابقكم كالمهيئ له ، فالفرط والفارط الذى يتقدم الوارد ليصلح لهم الحياض والدلاء ونحوهما من أمور الاستقاء ، ففى الكلام تشبيه بليغ يجسد مدى حبه ﷺ وحرصه على سلامة أمته من آفة الافتنان بالدنيا ، حتى تتمكن من الشرب من حوضه ﷺ وبيديه الشريفتين شربة هنيئة لا تطمأ بعدها أبداً ، و " على " بمعنى " إلى " وفى قوله " أنا فرطكم " قصر بتعريف الطرفين ، والمعنى أنا لا غيرى ، و " أل " فى الحوض للعهد ، أى الحوض المعهود له ﷺ [١] ويلاحظ أن لهذا التعبير مستويين ، فثمت مستوى مادى حسى ، يتمثل فى السبق المكانى ، وثمت مستوى معنوى يتمثل فى السبق الأخلاقى والإيمانى ، وقد جمع الحديث فى باعه بين المستويين[٢] ففى الحديث ما يعرف عند البلاغيين بـ "الاستتباع " [٣] ، فإن كونه ﷺ متقدماً عليهم على الصفة المكانية الحسية المعروفة وهم فى طريقهم للاستقاء من الحوض يستتبع كونه متقدما عليهم خلقا وسلوكا وسيرة ، وهى صورة بلاغية بلغت المرقاة فى صفة خلقه وبيان أفضليته ، وسبق ريادته ، وفى رواية عقبة بن عامر زيد "

---

(١) كما فى رواية أبي سعيد " وكل نبي يدعو أمته ، ولكل نبي حوض ، وإنى لأكثر الأنبياء تبعا يوم القيامة "

(٢) فإن الفرط فى لغة العرب هو الذى يتقدم الوارد ليصلح لهم الحياض والدلاء ونحوهما ، والمعنى : وأنا سابقكم على الحوض كالمهيئ من أجلكم،وفيه إشارة أيضا إلى قرب وفاته ﷺ وتقدمه لأصحابه،ولذا جاء فى رواية عقبة بن عامر " ثم صعد المنبر كالمودع للأحياء والأموات فال : إنى بين أيديكم فرط ..."

(٣) وهو المدح بشيء على وجه يستتبع المدح بشيء آخر كقول أبي الطيب :

نَهَبْتَ مِنَ الأَعْمَارِ مَا لَوْ حَوَيْتَهُ لَهُنِّئْتَ الدُّنْيَا بأَنَّك خَالِدُ "

الإيضاح تح /خفاجى ٦/ ٧٨ .

وأنا شهيد عليكم " أى أنا لا غيرى الشاهد الوحيد عليكم يوم القيامة ، ومن ثم أدعوكم إلى تنفيذ وصيتى هذه حتى تكون شهادتى هى طريقكم إلى الظفر بالجنة ، وكونه شهيداً على أمته نسق قرآنى من قوله تعالى ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾[١]، والأسلوب فى الجملتين خبري ، ومع إفادته المخاطب الحكم الذى تضمنه الخبر فإنه يدل على أن الحوض لا يرده إلا أهل الفضل ،ولا يشرب منه إلا من ظلت عقيدته راسخة ، ويقينه لا يتزعزع ، فلا يرتد عن دينه ، ولا يتكاسل فى أداء فرائضه تعالى ، بهذه الجملة الاسمية بين الرسول ﷺ منزلته بين أمته فى الآخرة ، فمنزلته فى الدنيا معروفة ، فهو سيد الأولين والآخرين ولا فخر ، وفى الآخرة سيكون سباقاً إلى كل خير .

ب- رحمته ﷺ بأمته ورغبته الصادقة فى التخفيف عنهم.

وقد ظهر ذلك فى أحاديث كثيرة منها : نهيه ﷺ أمته عن الوصال فى الصوم فـ(عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِيَّاكُمْ وَالْوِصَالَ ...) [٢] ، فقوله (إياكم) منصوباً على التحذير الذى هو تنبيه المخاطب على محذور ليحترز عنه ، وكان من الممكن أن يكون التحذير فى صورة الفعل المنهى عنه فيقال مثلا (لا تواصلوا) لكن التحذير بهذه الطريقة يرفع من أهمية الفعل المنهى عنه ، خاصة إذا علمنا أن هناك فعلاً مضارعاً محذوفاً هو : أحذركم ، وهو النمط الأصلى للكلام ، لكن الحديث طوى هذا الفعل ليأتى الكلام على طريقة من التقوية والتقريب للمعنى عن طريق الاحتشاد للفظ ، وهل البلاغة إلا جذب السامع والتأثير فيه ، والأسلوب يخيل للسامع صورة النبى ﷺ وهو ينطق هذا الكلام كأنه يرفع سبابته ، ويطبق يده بحدة وقوة ، ويبدو تأثير النهى على المخاطبين من خلال سؤالهم (إنك يا رسول

---

(١) النساء :٤١ .

(٢) صحيح مسلم ٤٤٥/١ كتاب الصيام ، باب النهى عن الوصال فى الصوم ،

الله تواصل) [١] ، وإنما نهى ﷺ أمته عن الوصال ، لأنه يضعف الجسم ، ويذهب بنضارة الوجه ، والإسلام يحرص على أن يكون المسلم قوياً فى عقيدته ، قوياً فى عزيمته ، قوياً فى بنيانه ، وفى عدته وعتاده [٢] ولذا قال رسول ﷺ (الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيف) [٣] فقد فضل المؤمن القوى على المؤمن الضعيف من جهتين : الخيرية والمحبة ، ولذا قال للباهلى الذى صام عاماً لا يفطر إلا بليل حتى عراه الهزال ، وأصابه الإعياء والضعف الشديد ، وتغيرت هيئته من النضارة إلى الذبول ومن القوة إلى الضعف (عَذّبْتَ نَفْسَك) [٤] .

ومنها امتناعه ﷺ عن الأمر الإلزامى لأبناء أمته باستعمال السواك عند كل صلاة ، فـ (عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِىِّ ﷺ قَالَ لَوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ – وَفِى حَدِيثِ زُهَيْرٍ عَلَى أُمَّتِى – لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ) [٥] ، فالحديث جاء فى تركيب أسلوب الشرط الذى أداته " لولا " وهى تدل على امتناع لوجود ، أى امتناع الأمر باستعمال السواك مع كل صلاة لوجود المشقة ، فقد جاء الامتناع عن الأمر هنا صريحاً مباشراً فى المنطوق اللغوى للحديث ، ولكنه فى الوقت نفسه لم يأت

---

(١) وفى صحيح البخارى (لا تواصلوا) [١] قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا(نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الْوِصَالِ رحمة لهم) [١] قال العينى: (لا يمنع قوله " رحمة لهم " أن يكون منهياً عنه للتحريم ، وسبب تحريمه الشفقة عليهم ؛ لئلا يتكلفوا ما يشق عليهم) [١] ، وجاء بيانه ﷺ " لا تواصلوا " فى أسلوب بلاغى جميل ليتناسق مع عظم المعنى وأهميته ، فقد جاء فى أسلوب إنشائي يعتمد على النهى الصريح الذى غرضه التحذير .

(٢) قال تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾

(٣) صحيح مسلم ٤٦١/٢ كتاب القدر، باب : فى الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله .

(٤) سنن أبي داوود ٤٠٣/٦ ، باب فى صوم أشهر الحرم .

(٥) صحيح مسلم ١٢٤/١ كتاب الطهارة ، باب : السواك .

خالياً من دلالة الطلب والأمر ، بل يأتى الامتناع عن الأمر فى جواب " لولا " مظهرا لأهمية مضمون الأمر ، فإن الفعل الممتنع عن الأمر به هو فى الحقيقة فعل مطلوب إنجازه ، بيد أن الحائل دون طلب الإلزام به هو المشقة ، ومن ثَمَّ يأتى التصريح بالامتناع عن الأمر ، والإلزام معضداً سياقياً ينتج بذاته دلالة الترغيب [١] .

ومنها رعايته للمرضى والضعفاء فى جانب العبادة وغيرها، ومن ذلك ما روى (عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَا أَكَادُ أُدْرِكُ الصَّلَاةَ مِمَّا يُطَوِّلُ بِنَا فُلَانٌ فَمَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْ يَوْمِئِذٍ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ مُنَفِّرُونَ فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ فَإِنَّ فِيهِمْ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ) [٢] ، فالحديث فيه بيان لرحمته ﷺ وشفقته بالمرضى والضعفاء من أمته ، وجاءت هذه القيم فى أساليب بليغة ، وصور أدبية مثيرة تتفتح لها منافذ الإدراك ، ومن ذلك قوله " أيها الناس " فهو نداء إلى الناس أجمعين ، وإن كان المقصود هم الصحابة الذين كانوا يستمعون إليه فى حلقة العلم ، ولهذا حذف أداة النداء لقربهم منه ، وتحلقهم من حوله ، وآثر لفظ " الناس " ولم يقل المسلمين ، أملا فى أن يسمع الناس جميعا سماحة الإسلام ، وتيسيره لمعتنقيه فى أداء الشعائر ، وقوله " إنكم منفرون " أى بأفعالكم لا بذواتكم ، وفى رواية " إن منكم منفرين " بتقديم الخبر على المبتدأ ، لإفادة قصر التنفير على البعض لا على الجميع ، و " منفرون " دلت بتشديدها على فظاظة هؤلاء الأئمة الذين يشددون على الناس بالتطويل فى الصلاة

---

(١) فقوله ﷺ " لأمرتهم " فيه الأمر الضمنى لا على سبيل الوجوب والإلزام ، وإنما فيه ترغيب فى إتيان الفعل لما يترتب عليه من فائدة .

(٢) صحيح مسلم ١٥٩/١ ، كتاب الصلاة ، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة فى تمام ، صحيح البخارى ٣٢/١ ، حديث :٨٨ ، كتاب العلم ، باب :الغضب فى الموعظة والتعليم إذا رأى ما يكره .

حتى يمل الناس من خلفهم [١] ثم جاءت جملة الشرط مقترنة بفاء السببية [٢] الداخلة على " من " التى تفيد العموم ، وجاء الجواب بصيغة المضارع المقترن بلام الأمر " فليخفف " ليدل على الأمر الواجب الذى لا بد من أدائه ، فأى واحد منكم صلى بالناس فليخفف على سبيل اللزوم دون أن يخل بمقاصد الصلاة وشروطها ، وقوله " فإن فيهم المريض ... " الفاء للتعليل ، وقدّم الخبر لإفادة أن التنوع فى الاسم واقع فى البعض لا فى الجميع ، وعطف الضعيف على " المريض " من باب ذكر العام بعد الخاص ، لأن الضعف أعم من المرض ، وقوله "المريض والضعيف وذا الحاجة" تقسيم حسن، لأن من لا يتحمل الوقوف الزائد عن الحد فى الصلاة إما مريض وإما ضعيف وإما ذو حاجة تعوقه عن طول الوقوف ، ولا رابع لهذه الأقسام[٣]،كما لا يخفى ما فى هذه الأقسام الثلاثة من تدرج من الأعلى إلى الأدنى، فالمريض أكثر حاجة إلى التخفيف من الضعيف ، والضعيف أكثر حاجة إلى التخفيف من ذى الحاجة ، ويضرب النبي ﷺ المثل الأعلى فى الرحمة بالتخفيف فى الصلاة ليكون الأسوة والقدوة بقوله (إِنِّى لأَدْخُلُ الصَّلاَةَ أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِىِّ فَأُخَفِّفُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ بِهِ) [٤] .

---

(١) وجاء التأكيد بـ " إن " واسمية الجملة مع أن الحديث موجه إلى خالى الذهن وهم الصحابة ، وهم ليسوا بمنكرين ولا متشككين فى أخباره ﷺ ، لأنه لما كان فيهم من يطول الصلاة بالناس حتى يسأم بعض المصلين نزلوا منزلة المنكرين ، ووجه ﷺ الخطاب إلى الحاضرين جميعا ولم يوجهه إلى من شكا منه الرجل و ولم يسمه سترا له ، لسمو أخلاقه ﷺ وكراهة أن يوصف ﷺ بأنه يفضح أصحابه .وليكون الحكم الشرعى عاما لا يختص بحدث معين ولا شخص بعينه .

(٢) لأن المعنى إنكم منفرون بسبب تطويلكم الصلاة حتى يمل الناس من خلفكم .

(٣) قال العيني " لأنه متناول لجميع الأنواع المقتضية للتخفيف ، فإن المقتضى له إما فى نفسه أولا ، والأول إما بحسب ذاته وهو الضعف ، أو بحسب العارض وهو المرض " [عمدة القاري ١٠٧/٢] .

(٤) صحيح مسلم ١٩٥/١ ، كتاب الصلاة ، باب : أمر الأئمة بتخفيف الصلاة فى تمام .

٤- توجيهه ﷺ المسلمين إلى ما يصلح عقيدتهم.

(عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِى سُفْيَانَ وَهُوَ يَخْطُبُ يَقُولُ إِنِّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِى الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِى اللَّهُ)[١] وفى رواية (إِنَّمَا أَنَا خَازِنٌ فَمَنْ أَعْطَيْتُهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ فَيُبَارَكُ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَعْطَيْتُهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ وَشَرَهٍ كَانَ كَالَّذِى يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ) .

فالحديث يتحدد مقصوده فى النهى عن المسألة ، والتوجيه إلى ما يصلح به عقيدة المسلم من اليقين فى أن المعطى هو الله وحده ، وفى سبيل إصلاح العقيدة ينفى ﷺ عن نفسه القدرة على العطاء بالتحديد الصارم الذى جاء فى بنية أسلوب القصر " إنما أنا خازن " ولا تختلف الرواية الأخرى فى البنية والدلالة ، فقد جاء فيها " إنما أنا قاسم ويعطى الله " ومعناه (أن المعطى حقيقة هو الله تعالى ولست أنا معطيا ، إنما أنا خازن على ما عندي ، ثم أقسم ما أمرت بقسمته على حسب ما أمرت به ، فالأمور كلها بمشيئة الله تعالى وتقديره، والإنسان مصرف مربوب) [٢] ونلاحظ أن ما جاء صريحا فى الرواية الأولى جاء تلميحا فى الرواية الثانية ، فدلالة أسلوب القصر تنتج ضمنا دلالة نفى القدرة على العطاء عن النبي ﷺ لتثبتها لله وحده .

ولما كان(مورد الحديث وقت قسمة المال حين خصص ﷺ بعضهم بالزيادة لحكمة اقتضت ذلك ، وخفيت عليهم حتى تعرض منهم بأن هذه قسمة فيها تخصيص لناس ، فرد عليهم ﷺ بقوله من يرد الله ... يعني من أراد الله به خيرا يوفقه ، ويزيد له في فهمه في أمور الشرع ، ولا يتعرض لأمر ليس على وفق خاطره ، إذ الأمر كله لله وهو الذي يعطي ويمنع) [٣] ويتسم أسلوبه بالإيجاز ،

---

(١) صحيح مسلم ٤١٤/١ كتاب الزكاة ، باب : النهى عن المسألة

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى ١٢٩/٧ .

(٣) عمدة القارى ٤٣٣/١ .

والوصول إلى الغرض من أقصر طريق ، وهذا واضح فى قوله " من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين " [١] ، ولكى يفصح ﷺ عن مناسبة هذه العبارة للموقف ، قال " وإنما أنا قاسم ويعطى الله " (وإنما قال ذلك تطييبا لنفوسهم لمفاضلته في العطاء ، فالمال لله ، والعباد لله ، وأنا قاسم بإذن الله ماله بين عباده ... ، يعنى هذا التفوات ليس منى ، وإنما الذى منى هو القسمة بينكم) [٢] ، وقوله " إنما أنا قاسم " إنما أداة حصر ، وأنا مبتدأ ، وقاسم خبره ، والمعنى : ما أنا إلا قاسم [٣] ، وقوله ﷺ " إنما أنا قاسم ويعطى الله " دليل على أنه ﷺ إنما يعطى بالوحى ، ورواية البخارى : " والله يعطى " وهى جملة مكونة من مبتدأ وخبر فى موضع نصب حال ، وفيها تقديم لفظة " الله " لإفادة التقوية عند السكاكى ، ولا يحتمل التخصيص ، أى أن الله يعطى لا محالة ، وأما عند الزمخشري فيحتمله أيضا ، وحينئذ يكون معناه : الله يعطى لا غيره [٤] .

---

(١) فبدلا من أن يطنب فى موعظته ﷺ لأصحابه فيقول : إننى أبلغكم تعاليم الدين فيفهمها بعضكم فهما صحيحا ، ويهديه الله إلى العمل بها فيسعد فى دنياه وآخرته ، ويستعصى فهمهما على بعضكم فيخالف جماعة المسلمين ويؤولها على هواه فيضل ويغوى ، بدلا من أن يقول هذا قال فى عبارة وجيزة " من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين .

(٢) عمدة القاري ٤٣٢/١

(٣) " فإن قلت كيف يصح هذا وله صفات أخرى مثل كونه رسولا ومبشرا ونذيرا ؟ قلت الحصر بالنسبة إلى اعتقاد السامع ، وهذا ورد في مقام كان السامع معتقدا كونه معطيا وإن اعتقد أنه قاسم فلا ينفي إلا ما اعتقده السامع ، لا كل صفة من الصفات ، وحينئذ إن اعتقد أنه معط لا قاسم فيكون من باب قصر القلب ، أي ما أنا إلا قاسم أي لا معط ، وإن اعتقد أنه قاسم ومعط أيضا فيكون من قصر الإفراد، أي لا شركة في الوصفين أي بل أنا قاسم فقط ، ومعناه أنا أقسم بينكم فألقى إلى كل واحد ما يليق به والله يوفق من يشاء منكم لفهمه والتفكر في معناه ... " [عمدة القاري ٤٣٢/١] .

(٤) يراجع : شروح التلخيص ٤٠٠/١ ، وما بعدها ، مفتاح العلوم تح /هنداوى :٣٢٥ ، الكشاف

(فإن قلت إذا كانت هذه الجملة حالية ... فما يكون معنى الحصر حينئـــذ ؟ قلت الحصر بإنما دائما في الجزء الأخير ، فيكون معناه: ما أنا بقاسم إلا في حـــال إعطاء الله لا في حال غيره ، وفيه حذف المفعول أعني مفعول يعطي ؛ لأنه جعلـــه كاللازم إعلاما بأن المقصود منه بيان اتحاد هذه الحقيقة ، أي حقيقـــة الإعطـــاء لا بيان المفعول أي المعطي)[١].

ونلحظ تعبيره ﷺ عن نفسه بالاسم " قاسم " وتعبيره عن الله بالفعل " يعطى " ، لأن الاسم يدل على الثبوت والدوام ، والفعل يدل على التجدد والحدوث ، والنبي ﷺ يخبر عما سيكون من أمر أمته من اختلافهم فى فهم النصوص القرآنية والسنة النبوية المطهرة ،وهذا الاختلاف يحدث ويتجدد لدى العلماء جيلا بعد جيل ؛ لينـــتج عنه المذاهب الفقهية الأربعة تيسيرا على الأمة من الالتزام بمذهب واحد ، فالعطاء يتجدد بتجدد الاختلاف ، أما صفة " قاسم " فثابتة ودائمة له ﷺ .

---

(١) عمدة القارى ٤٣٣/١ .

المبحث السادس

حديثه ﷺ عن مكانته بين الأنبياء

إن الحديث عن مكانته ﷺ بين الأنبياء حديث عن بيان منزلة شريعته بين الشرائع المتقدمة وأنها لم تكمل إلا بشريعته العامة السمحة ، وأن الأنبياء به قد ختموا ، وأن العقلاء من جميع الأمم كانوا يدركون هذا النقص قبل بعثته ، فلما أرسل كمل هذا النقص ، مصداقاً لقوله ﷺ : (إنما بُعِثْتُ لأُتمِمَ مَكارِمَ الأَخْلاَق) ، وقد سلك ﷺ لأداء هذه المعانى طريقة فذة ، ندركها من خلال هذا الحديث (عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: مَثَلى ومثَلُ الأنبِيَاءِ مِنْ قَبلِى كَمثَلِ رَجُلٍ بنَى بُنْياناً فأَحْسَنَه وَأَجْمَلَه إلّا مَوضِعَ لَبنةٍ من زَاويةٍ من زَوَاياه ، فَجَعل الناسُ يطوُفونَ بهِ ، ويَعْجَبُون لَه ، وَيقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَذِه اللبنةُ ، فَأنَا اللبنةُ ، وَأنَا خَاتمُ النّبِيين) [١] ، فهذا الحديث يبين منزلته ﷺ بين إخوانه الأنبياء ، كما يبين دور الرسالة المحمدية بين الرسالات السابقة فى إتمام التشريع الإلهى ، الذى تنزل على الإنسان فى مدارج تطوره ، ملائما عقله ونضجه وطاقته ، ثم ليبين كمال هذه الرسالة وخلودها ، وملاءمتها للإنسان الناضج حتى نهاية الزمان ، وقد جاء الحديث فى معرض التمثيل ، قصة قصيرة اشتملت على تصوير شامل محسوس ، رجل بنى بيتاً فأجمله ، وأحسنه ، لكنه ترك موضعاً خطيراً لا يتم المنزل بدونه ، إنه موضع لبنة فى زاوية تجمع إليها اتجاهين من البنيان ، وحسن المنزل لا يخفى ولكن موقع هذه اللبنة يثير العجب ، وينشط الخيال لمخالفته الواقع المرئى ، ثم وضعت اللبنة فى مكانها من الزاوية ليكمل البناء، ونلحظ الآتى:

١- البناء رمز للرسالات ، تصوير للغائب المعقول بالمشاهد المحسوس .

---

(١) صحيح مسلم ٣١٥/٢ كتاب : الفضائل ، باب: ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين .

٢- التخيل فى البناء المعروف باللبنة ، وموضعها الخطير مما يلفت النظر إيماء إلى أهمية الرسالة المحمدية وخطورتها .

٣- التدليل الحسى على أنه ﷺ خاتم النبيين .

واستهلال الحديث بقوله (مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ...) فيه دلالة على أنه يقص قصة لها شأن ، ثم نلحظ دخول أداة التشبيه على اسم ظاهر ليس مقصوداً لذاته ، ولا يستقل بالحديث ، وإنما إيماء إلى أهميته وبناء التشبيه عليه [١] ، وجعل المشبه به واحداً مع أن المشبه متعدد،وفى ذلك إشارة إلى أن الشرائع وإن تعددت فهى واحدة فى أساسها[٢]، فالرسالات السماوية كلها تدعو إلى توحيد الله تعالى، وهى وحدة واحدة يكمل بعضها بعضا؛ لأنها من عند الله ، قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .... ﴾ [٣] ، وقوله (فأحسنه وأجمله) تلويح يدل على أن رسالات السماء فيها الحسن والجمال والكمال ، وقوله (إلا موضع لبنة ...) هنا يأتى دور الرسالة المحمدية ، فهى المتممة للرسالات ، ثم انظر طريقة أداء المعانى فى الوصل بين الجمل (فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون ...) فهو للتوسط بين الكمالين ؛ لاتفاق هذه الجمل فى الخبرية لفظاً ومعنى ، فالرسول ﷺ شبه هيئته وصفته مع الأنبياء السابقين فى أنه خاتمهم ، ومتمم لرسالاتهم بهيئته رجل بنى بنياناً فأحسنه ، وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، وهذا البنيان أعجب الناس وأدهشهم ، إلا أنهم كانوا يتمنون أن توضع اللبنة فى المكان المعد لها ، فقولهم (هلا وضعت هذه اللبنة) تعبير يكشف عن رغبتهم الصادقة فى

---

(١) ينظر: كتاب أسرار البلاغة تح/ شاكر ، ص١١٤ .

(٢) ينظر: لمحات من هدى النبوة د/ محمود شيخون ، ص٣٠ ، ٣١ .

(٣) الشورى من الآية ١٣ .

اكتمال البنيان ، والحاجة الملحة إليه ، فجاء ﷺ متمماً ومكملاً لهذا البنيان العظيم ، والوجه الهيئة الحاصلة من وجود أمر عظيم ختمه وتممه وكمله وجمله أمر عظيم أيضاً ، وهو تصوير بديع فيه من الجمال ما فيه ، فهو تشبيه تمثيلى صور فيه ﷺ الأنبياء السابقين عليه ورسالاتهم بالبنيان الكامل المترابط الذى ينقصه لبنة واحدة ، هى المصطفى ﷺ ورسالته ، لذا قال (فأنا اللبنة) وهو تشبيه بليغ حذف منه الوجه والأداة وبقى الطرفان فقط ، وهذا التشبيه يؤكد المعنى الذى قصده ﷺ ، وهو أنه ﷺ خاتم الأنبياء، ورسالته خاتمة الرسالات ، فلا مجال للادعاءات المزيفة ، والأباطيل الكاذبة ، والنداءات المغرضة التى تظهر من حين لآخر مدعية النبوة ، وقوله (فأنا اللبنة) أسلوب قصر طريقه تعريف الطرفين ، فقد قصرت اللبنة على النبى ﷺ قصراً حقيقياً ، وقوله (وأنا خاتم النبيين) تأكيد لقوله السابق (فأنا اللبنة) ونفى عام للافتراءات ، وقطع لألسنة الكذب والبهتان ، وتصريح بأن الرسالات ببعثته ﷺ قد انتهت ، وأن النبوات به ﷺ قد ختمت ، وقوله (وأنا خاتم النبيين) أسلوب قصر بتقديم المسند إليه ، فقد قصر ختم الأنبياء عليه ﷺ قصراً حقيقياً ، وهو قصر صفة على موصوف ، ونلحظ أن الحديث قد ختم ببيان العبرة ، وتوضيح التمثيل برد الكلام إلى المشبه تأكيداً وترسيخاً للمعنى فى النفس ، كما نلاحظ انتزاع الصورة السابقة من عمل إنسانى منتزع من البيئة فى تصوير فنى عجيب ، فمن ذا الذى لا يتخيل صورة بيت وضعت أسسه ، ثم رفعت قواعده ثم بنى سقفه ؟ إن هذه الصورة على الرغم من بساطة تناولها تستمر ماثلة الأطراف ، والجوانب عبر الخيال النفسى لكل مشاهد ، وهذا من خصائص الإفصاح عن المعانى عند الأدباء بوجه عام ، لكنها فى الأدب النبوى قد تميزت بنهج خاص هو القدرة على الملائمة بين المعنى واللفظ ، ليخدم كل منهما الآخر [١] .

([١]) الخصائص الفنية فى الأدب النبوى د/ محمد بن سعد الديل ، ص١٤٩ ، ١٩٥ مكتبة العبيكان.

بهذا الحديث بين ﷺ مكانته ومنزلته بين الأنبياء، إنها مكانة سامية، ومنزلة عالية ، حيث تمم الله به الرسالات ، وختم به النبوات ، وساق النبى ﷺ هذه المعانى فى عبارات وأساليب بلاغية رائعة ، حيث التشبيه الذى جسم المعنويات ، وأخرجها فى صورة حسية ملموسة ، يراها الناظر ، ويشاهدها السائر فتستقر فـــى القلـــب ، وتثبت فى الوجدان ، وحيث أسلوب القصر الذى أكد المعانى بطريقة لا تدع مجـــالاً للشك أو الإنكار كما جاءت الألفاظ موحية ومعبرة ، تدل على مهارة صـــاحبها فـــى استجلاء الصور وإحكامها .

المبحث السابع

حديثه عما اختصه الله به ، وحيازته ﷺ للأوائل .

لقد اختص الله نبيه ﷺ بخصائص و وميزه عن سائر خلقه بمميزات عظيمة ، وذلك لبيان منزلته عند ربه ، وتحدث ﷺ عن هذه العطايا اعترافا بفضل الله عليه ، وإعلاما للأمة ليعتقدوا فضله على جميع الخلائق ، ومما اختص به ﷺ أن دعوته على الكفار مجابة [١] ، وأن الله قد طوى له صفحة الكون، وأطلعه على أمور من الغيب فرأى الجنة ومشاهد منها[٢] ، وكشف ﷺ عن فصاحته ،وأبان عن معجزته حين قال (إِنَّ اللهَ لم يجعلنى لحاناً ، اختارَ لى خيرَ الكَلامِ كِتابَه القُرآن) [٣] ، ومما اختصه الله تعالى به ، وكشف عنه ﷺ فى بيانه الشريف ، ما روى (عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِستٍّ أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِىَ الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِىَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى

---

(١) فقد روى أن أناسا من اليهود قَالُوا السَّامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْقَاسِمِ. فَقَالَ « وَعَلَيْكُمْ ». فَقَالَتْ عَائِشَةُ وَغَضِبَتْ أَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا قَالَ « بَلَى قَدْ سَمِعْتُ فَرَدَدْتُ عَلَيْهِمْ وَإِنَّا نُجَابُ عَلَيْهِمْ وَلاَ يُجَابُونَ عَلَيْنَا " وفى رواية البخارى " رَدَدْت عَلَيْهِمْ فَيُسْتَجَاب لِي فِيهِمْ وَلَا يُسْتَجَاب لَهُمْ فِيَّ [صحيح مسلم ٢٦٦/٢ ، كتاب : السلام ، باب : النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم ، صحيح البخارى ١٣٢/٤ حديث رقم : ٦٠٣٠ ، كتاب : الأدب : باب : لم يكن النبي ﷺ فاحشا ولا متفاحشا] .

(٢) ففى الصحيح (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِىَ الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا وَإِنَّ أُمَّتِى سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِىَ لِى مِنْهَا وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ ...) صحيح مسلم ٥٥٢/٢ كتاب الفتن وأشراط الساعة و باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض ، وقال (اطَّلَعْتُ فِى الْجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ وَاطَّلَعْتُ فِى النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ) صحيح مسلم ٤٨٧/٢ ،كتاب الرقاق ، باب : أكثر أهل الجنة الفقراء ،وأكثر أهل النار النساء وبيان الفتنة بالنساء .

(٣) البيان والتعريف فى أسباب ورود الحديث الشريف للدمشقي تح/ الحسيني هاشم ص : ٤١٠.

الْخَلْق كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ) [١] ، فالنبي يبرز لنا فى هذا الحديث فضل الله عليه ، ومن هذا الفضل أن الله تعالى ميزه واختصه بعطايا لم يخصها أحدا من أنبيائه ، وها هو ﷺ يصرح بذلك ، وقد استهل الحديث بهذا الفعل المبنى للمجهول " فضلت " حيث حُذف الفاعل للعلم به ، إذ لا فضل لأحد عليه ﷺ إلا الله ، وحرف الجر " على "يفيد استعلاءه ﷺ على جميع الأنبياء وتمكنه من هذه الفضائل ، و " أل " فى الأنبياء للاستغراق فهى تشمل جميع الأنبياء من عرف ومن لم يعرف ، ثم نلحظ حذف المضاف إليه والتعويض عنه بالتنوين فى " بست " والأصل بست فضائل أو خصال عظيمة ، وقوله " فضلت على الأنبياء بست " قول مجمل يحدث فى النفس شغفا لتفصيله ، ولذلك تتهيأ النفوس لمعرفة هذه الفضائل التى خص الله بها نبيه ﷺ دون غيره من الأنبياء ، فلجأ ﷺ بعد هذا الإجمال إلى بسطة فى القول ليجلى حقائق ما خصه الله به ، والعدد هنا لا مفهوم له ، إذ ورد فى رواية جابر (أُعطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعطهنّ نبي قَبلي) [٢] ، ولذا فالمقصود بيان فضله على الأنبياء ، إذ ليس معنى العدد أنه لم يعط غير هذه المعطيات ،فالعدد هنا ليس المقصود منه بيان الغاية العددية فى إعطاء الله لرسوله ، وإنما وحى الضمير ولمسات الخاطر هى التى أوحت إليه بهذه الفضائل الست التى استقاها من أجواء أحاطت به [٣] ، حتى ذكر

---

(١) صحيح مسلم ٢١٣/١ ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة .

(٢) ومن نبراس بلاغته ﷺ أن يكون حديثه عما اختصه الله به ملائما لما يتطلبه الوقف ، حيث إن هذا الحديث ذكره فى غزوة تبوك سنة ٩ هجرية ، وحينذاك لاح بخاطره أن هزيمة أهل الشرك ما كانت إلا بعون الله وتوفيقه ، حيث كان الرعب والفزع ينتابهم ، وقد كان ﷺ على مسيرة شهر من لقائهم .

(٣) ففى حديث أبي هريرة (فضلت على الأنبياء بست غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ، وجعلت أمتي خير الأمم ، وأعطيت الكوثر ، وإن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة...) وفى حديث حذيفة (فضلنا على الأنبياء بثلاث جعلت الأرض كلها لنا مسجدا و جعلت تربتها

أن عدد ما اختص الله به نبينا ﷺ ستون خصلة ، فالحديث لا يفيد الحصر، وإنما التقييد لما يتطلبه الموقف آنذاك ، وأولى هذه الفضائل " أعطيت جوامع الكلم " والبداية بالفعل المبنى للمجهول تبين أنه ﷺ حتى فى حديثه الصادر عنه حريص على أن يثبت لأمته أن العطاء هو عطاء الله، وأنه لا يملك من الأمر شيئا ، بل الأمر كله لله ، ثم إن فعل العطاء غالبا ما يشير إلى أمور مادية ، ولكنه هنا جاء للتعبير عن أمور روحية ومعنوية [١] ، ولأن النفس أقرب إلى حب العطاء استخدم الفعل " أعطيت " ليقرب المعنى إلى ذهن السامع فالعطاء محبب إليه ، والمعنى أنه ﷺ ممسك بزمام الكلم ، فتتبادر الجمل بأدق العبارات الموحية ، فى طرائق انسيابية فيها جدة المعنى ، وإحكام التراكيب وحسن النسق بدون تكلف ، بل تفيض الكلمات المعبرة والألفاظ السيالة ، وهذا من أظهر الخصائص العامة لبلاغته ﷺ .

وثانيها : " نصرت بالرعب " ولا ناصر إلا الله ، وفيه إشارة إلى قوله ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [٢] ، وفى رواية زيد " مسيرة شهر " وقيدت المسيرة بالشهر ، لأنه لم يكن بينه وبين أحد من أعدائه أكثر منه ، وهو يوحى بشدة الرعب ، إذ يلقى فى قلوب أعدائه ﷺ بمجرد خروجه لقتالهم ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [٣] ، ونلحظ حذف جملة الحال والتقدير: نصرت بالرعب

لنا طهورا ، وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وأوتيت هؤلاء الآيات من آخر سورة البقرة من كنز تحت العرش ...)

(١) تجسيد للمعنوى ليتناسب مع النفس الإنسانية التى تميل إلى كل ما هو مادى أكثر من ميلها إلى المعنوى ، و وبنى الفعل للمجهول ليسند العطاء لصاحبه وهو الله ، وللدلالة على انفتاح العطاء الإلهى الذى هو أصلا بلا حدود ، لأن الله واسع العطاء .

(٢) الأنفال :١٥١ .

(٣) الحج :٤٠ .

يقذف فى قلوب أعدائي ، فحذفت هذه الجملة لظهورها ، والشيء إذا وضح حسن السكوت عنه ،وإذا كان الله قد نصر رسوله والمؤمنين بإلقاء الرعب فى قلوب الأعداء ، فقد أمر ملائكته بتثبيت المؤمنين ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (١) ، وهنا تتعدد أسباب النصر إكراما له ﷺ ، ولما كان الحديث عن القتال يتطلب الحديث عن نصر المؤمنين ، الذى من ورائه الفوز بالغنائم ، قال ﷺ " وأحلت لى الغنائم " والمحل والمحرم هو الله تعالى ، وفى رواية جابر زيد " ولم تحل لأحد قبلى " ، فلقد كان من قبله إذا غنموا شيئا لا يحل لهم أخذه ، وجاءت نار فأحرقته ، إنه التلميح البلاغى الذى هو لون طريف من ألوان البديع ، مما به يتأكد أن تحليل الغنائم خاصية من خواص محمد ﷺ ، والمطابقة بالسلب فيها تنشيط الذهن ، وتوقد مشكاة الذاكرة لتستنهض ما كان عليه السابقون من الرسل ، حتى يستحضر الإنسان ما كانوا يصنعونه حيال الغنائم بعد انتصارهم على أعدائهم ،أعداء الدين ، وفيها دعوة ضمنية للجهاد إعلاء لكلمة الله ، فضلا عن الثواب العظيم الذى أعده الله للمجاهدين ، فقد أحل لهم الغنائم التى تتحقق بالنصر ، فهو ثواب عجله الله لهم فى الدنيا وادخر لهم ثوابا أعظم فى الآخرة .

ولما كان القتال فى سبيل الله لا يعطل الصلاة بحجة أنهم بعيدون عن أماكن العبادة، أشار ﷺ إلى ذلك بقوله " وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا " وهنا نلحظ الإيماء البلاغى ؛ لأن غيره ﷺ وإن جعلت له الأرض مسجدا ، فلم تجعل له طهورا ؛ لأن عيسى عليه السلام كان يسيح فى الأرض ، ويصلى حيث أدركته الصلاة ، وذلك فى موضع يتيقن طهارته ، بخلاف أمته ﷺ فأبيح لها فى جميع الأرض إلا فيما يتيقن نجاسته ، ولكى يؤكد ﷺ ثبوت الخصوصية له قال: " وجعلت لى الأرض طهوراً ومسجداً " ، ولم يقل مسجداً وطهورا ، وذلك لأن الطهور هو

---

(١) الأنفال :١٢ .

المطهّر لغيره ، لأن الطهور لو كان المراد به الطاهر فى ذاته ، لم تثبت الخصوصية للرسول ﷺ ، والحديث إنما سيق لإثباتها ، والقول من مجاز التشبيه ، لأنه لما جازت الصلاة فى جميعها كانت كالمسجد فى ذلك ، وذلك ليؤكد صحة الصلاة فى أى بقعة من بقاع الأرض ما دامت مسجدا ، ومن دقة بلاغته ﷺ تعبيره بالفعل (جعل) الذى يفيد معنى التصيير والتحول اتساقا مع الإيماء البلاغى ، وهذا يوحى بضرورة إقامة الصلاة فى وقتها ؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ [١] ، وفى رواية البخارى زِيد (فأيما رجل أدركته الصلاة فليصل) وهو تعقيب على ما قبله ، جاء فى أسلوب شرط اعتمد على (ما) الزائدة لتدل على صيغة العموم التى يدخل تحتها مَنْ لم يجد الماء ، فإنه يتيمم ، ففى الكلام إيجاز بلاغى اقتضاه المقام حيث الدلالات الواضحة ، وهو أنه: فليصل بعد أن يتيمم ، ثم قال ﷺ (وأرسلت إلى الخلق كافة) وهو كناية عن عموم رسالته ﷺ ، وفيه إيماء تنبثق منه الدلالات الفياضة ، فنوح عليه السلام وإن كان قد بُعث إلى أهل الأرض بعد الطوفان ؛ لأنه لم يبق إلا من كان مؤمناً ، وقد كان مرسلا إليهم ، فإن العموم لم يكن فى أصل بعثته ، وإنما اتفق بالحادث الذى وقع وهو انحسار الخلق فى الناس الموجودين بعد الطوفان ، أما نبينا ﷺ فعموم رسالته كان من يوم أن بعث ، فثبت بذلك اختصاصه بأنه أرسل إلى الخلق كافة ، وفيه تضمين لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾[٢] ، إنه التلميح البلاغى بطرافته وإيقاظه للأفكار، حتى تظل ماثلة لأحداث

---

(١) سورة النساء آية ١٠٣ .

(٢) سبأ ٢٨ .

الماضى، فتربط بين القديم والحديث حتى تزداد إيمانا ويقينا ، فتحس بقدر رسول البشرية محمد ﷺ .

وآخر هذه الفضائل (وختم بى النبيون) وفيه دلالة على خلود شريعته ﷺ ، وانقطاع شرائع من سبقه ، وأن الإسلام هو الدين الذى ارتضاه الله لعباده ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً ﴾ [١] وهذا التعبير بيان لقوله ﷺ " وأنا العاقب الذى ليس بعده أحد " فالشئ بالشئ يذكر ، وهو ما يعرف بـ مراعاة النظير ، مما فيه التناسب بين المعانى ، حتى أضاف ﷺ إلى الفضائل عموم رسالته ، وختمه للنبوات ، وضمها ﷺ فى عقد تلاحمت حباته ، وتلاصقت أصدافه ، فوصل بينها بالواو لاتحادها فى الخبرية لفظا ومعنى ، ومما زاد الوصل حسنا اتحاد الجمل التقريرية الدالة على هبات الله لرسوله ، لا فى الأسلوب الخبرى التقريرى فحسب ، بل فى كونها أفعالاً ماضية (فُضلت – أُعطيت – نُصرت – أُحلت – جُعلت – أُرسلت – خُتم) وذلك مما يؤكد وقوعها ، ويثبت أنها تحققت لا محالة له ﷺ ، وهى بذلك تتفق فى إظهار التشريف والتخصيص لعطاء الله لرسوله .

أما عن حيازنه ﷺ للأوائل التى لم يحزها أحد غيره ، فقد عبر عن ذلك بأسلوب كله فخر واعتزاز واعتراف بفضل الله عليه [٢] ، فـ " عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَم يَوْمَ القيامة ، وَأَوّلُ مَنْ يَنْشَقُ عَنْه القَبْرُ ، وَأَوّلُ شَافِعٍ وَأَوّلُ مُشَفَّع " [٣] ، وأول ما نلحظه فى الحديث تعبيره ﷺ بالضمير المنفصل

---

(١) المائدة ٣ .

(٢) ومن ذلك قوله " أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة ، وأنا أول من يقرع باب الجنة " [صحيح مسلم ١٠٥/١ كتاب الإيمان ، باب فى قول النبىﷺ : أنا أول الناس يشفع فى الجنة ، وأنا أكثر الأنبياء تبعا] ، وقوله: " أنا أول شفيع فى الجنة لم يصدق نبى من الأنبياء ما صدقت .. " [صحيح مسلم ١٠٥/١ الكتاب والباب السابقان] .

(٣) صحيح مسلم ٣١٠/٢ كتاب : الفضائل ، باب: تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق .

الدال على ذاته الشريفة ، وهو وإن كان يحمل دلالات الاعتزاز بالنفس ، وهذا أمر منهى عنه لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [١] إلا أنه لا يوجد لفظ أوفى تعبيرا منه ، فالضمير هنا يقوم مقام صاحبه ، ثم نجد كلمة جديدة تشد القارئ ، لم نعهدها كثيراً فى بيانه ﷺ ، ألا وهى كلمة (سَيّد) التى تدل على الريادة والأسبقية ، وعلامة على الاصطفاء ، والتميز ، إذ (سيد كل شئ أشرفه وأرفعه) [٢] ، والسيد هو الذى يفوق قومه فى الخير ... وقيل: هو الذى يفزع إليه فى النوائب الشدائد ، فيقوم بأمرهم ويتحمل عنهم مكارههم ويدفعها عنهم [٣] ، وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن مرتين [٤] ، وفى قوله (أنا سيد ولد آدم) تلويح بلاغى بما يحدث من آدم يوم القيامة ، عندما يتقدم الناس إليه بالشفاعة ، فيقول: (إن ربى غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته ، نفسى نفسى ، اذهبوا إلى غيرى) [٥] .

وتقييد السيادة بـ " يوم القيامة " مع أنه سيدهم فى الدنيا والآخرة ، ليظهر سؤدده لكل أحد ، ولا يبقى منازع ولا معاند ونحوه ، بخلاف الدنيا فقد نازعه ذلك

---

(١) سورة النجم أية ٣٢ .

(٢) لسان العرب ٤٢٤/٦ سود .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ٣٧/١٥ .

(٤) فى وصف يحيى عليه السلام ﴿ وَسَيِّداً وَحَصُوراً ﴾ [أل عمران ٣٩] وهى تعنى أنه ساد قومه فى الشرف وفاقهم عفة ونزاهة عن الذنوب [ينظر: الكشاف ١٨٨/١ [وفى قصة يوسف ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ ﴾ [يوسف ٢٥] والمراد هنا بعلها وهو قطفير] .

(٥) صحيح مسلم ١٠٣/١ ، كتاب الإيمان ، باب: أدنى أهل الجنة منزلة فيها .

فيها ملوك الكفار وزعماء المشركين،وهذا التقييد قريب من معنى قوله تعالى: ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[١].

وقوله " أنا سيد ولد آدم " لم يقله فخرا ، بل صرح بنفى الفخر فى غير مسلم [٢] ، وإنما قال لوجهين: أحدهما امتثال قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [٣] ، والآخر أنه من البيان الذى يجب عليه تبليغه إلى أمته ليعرفوه ويعتقدوه ، ويعملوا بمقتضاه ، ويوقروه ﷺ بما تقتضى مرتبته كما أمرهم الله تعالى [٤] .

---

(١) مع أن الملك له سبحانه قبل ذلك ، لكن كان فى الدنيا من يدعى الملك ، أو من يضاف إليه مجازا ، فانقطع كل ذلك فى الآخرة " [صحيح مسلم بشرح النووى ٣٧/١٥ ، وينظر: فيض القدير ٥٤/٣] قال المناوى: " خصه لأنه يوم مجموع له الناس فيظهر سؤدده لكل أحد عيانا ، وصف نفسه بالسؤدد المطلق المفيد للعموم فى المقام الخطابى على ما تقرر فى علم المعانى ، فيفيد تفوقه على جميع ولد آدم حتى أولوا العزم من الرسل واحتياجهم إليه ، كيف لا وهو واسطة كل فيض ، وتخصيصه ولد أدم ليس للاحتراز ، فهو أفضل حتى من خواص الملائكة " .

(٢) فيض القدير ٥٥/٣ حديث رقم ٢٦٩٣ .

(٣) الضحى ١١ .

(٤) وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على الخلق كلهم ؛ لأن مذهب أهل السنة أن الآدميين أفضل من الملائكة ، وهو ﷺ أفضل الآدميين وغيرهم ، وأما الحديث الآخر ": لا تفضلوا بين الأنبياء " فجوابه من خمسة أوجه: أحدها: أنه ﷺ قاله قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم فلما علم أخبر به ، الثانى: قاله أدبا وتواضعا ، الثالث: أن النهى إنما هو عن تفضيل يؤدى إلى تنقيص المفضول ، الرابع: إنما نهى عن تفضيل يؤدى إلى الخصومة والفتنة كما هو المشهور فى سبب الحديث ، الخامس: أن النهى مختص بالتفضيل فى نفس النبوة فلا تفاضل فيها ، وإنما التفاضل بالخصائص ، وفضائل أخرى ، ولابد من اعتقاد التفضيل فقد قال الله تعالى ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [صحيح مسلم بشرح النووى ٣٧/١٥ ، ٣٨].

قال المناوى: " أى أقول ذلك شكرا لا فخراً من قبيل قول سيلمان عليه السلام ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ (١) .

وقوله (وأول من ينشق عنه القبر) أى للبعث ، فلا يتقدم أحد عليه بعثا ، فهو من خصائصه (٢) ، والمعنى أنه ﷺ أول من يعجل إحياؤه مبالغة فى إكرامه ، وتخصيصا له بتعجيل جزيل إنعامه (٣) ، وفى الكلام حذف للمسند إليه لدلالة ما قبله عليه ، وفيه تلويح بلاغى بقوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً﴾ (٤) ، قوله﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (٥) ، والأسلوب خبرى دل على عظم قدره ﷺ ، ومنزلته عند ربه ، فهو أول من يبعث ، وأول من يرد المحشر ، وأول من يدخل الجنة ، فـ (عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: آتى باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد ، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك) (٦) .

والنبى ﷺ يستخدم الألفاظ الموحية ذات الدلالات المتسعة الأرجاء ، المصورة للمعنى أدق تصوير ، فى أسلوب موجز بليغ ، ومن ذلك أنه فى صدر الحديث قال: أنا سيد ولد آدم " وفى باقى الحديث قال: (أول من ينشق .. وأول شافع ، وأول مشفع) ليفيد أنه صاحب السيادة وحده ، وترك لفظة " أنا " فى باقى

---

(١) النمل ١٦ ، أى لا أقوله تكبرا وتفاخراً وتعاظما على الناس ، وقيل: لا أتكبر به فى الدنيا وإلا ففيه فخر الدارين، وقيل: " لا أفتخر بذلك ، بل فخرى عن إعطائى هذه الرتبة ، والفخر ادعاء العظم ، والمباهاة ، وهذا قاله للتحدث بالنعمة ، وإعلاماً للأمة ليعتقدوا فضله على جميع الأنبياء [فيض القدير ٣/٥٥] .

(٢) تحفة الأحوذى ٩/١٨ ، فيض القدير ٣/٥٤ .

(٣) فيض القدير ٣/٥٤ .

(٤) ق من الآية ٤٤ .

(٥) يس الآية ٥١.

(٦) صحيح مسلم ١/١٠٥ ، كتاب الإيمان ، باب: قول النبى ﷺ أنا أول الناس يشفع فى الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً .

الحديث ليدل على أنه ليس وحده الذى استأثر بذلك ، ففى قولـــه" أول شـــافع وأول مشفع " ما يفيد أن لغيره من الأنبياء الشفاعة أيضاً ، وإن كان هو الأول فى الفضل والتوفيق وقوله: " وأول شافع " على معنى الشفاعة العامة التى تكون فى المحشـــر بفزع الخلائق إليه ؛ لأن الشفاعة فى الخاصة جعلت لغيره أيضـــا ، وقولـــه "وأول مشفع " ما يفيد أنه قد يشفع اثنان ، لكن قد يتقدم أحدهما على الآخـــر فـــى قبـــول الشفاعة ، مما فيه دلالة على عظم قدره ﷺ فى قبول شفاعته فى الخاص قبل غيره [١] ، ومن بلاغته ﷺ فى هذا الحديث جمعه بين الأشياء المناسبة ، وهو ما يعـــرف بـــ مراعاة النظير ، فالرسول ﷺ يذكر القيامة ، وما فيها من بعث وشفاعة ، ولـــذا ناسب الوصل بالواو بين المعانى التى تميز بها ، لوجود الجـــامع بينهـــا ، وهـــى حدوثها جميعها يوم القيامة مع اتفاقها فى الأسلوب الخبرى ، وهـــو مـــا يســـميه البلاغيون: التوسط بين الكمالين .

---

(١) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووى ٣٨/١٥ .

خاتمـــة

الحمد لله وكفى ، وصلاة وسلاماً على النبى المصطفى ، وآله المستكملين الشرف ، وبعد هذه الجولة التأملية مع حديث النبى ﷺ عن نفسه ، يمكن رصد النتائج التالية:

١- حديثه ﷺ عن نفسه مأخوذ من حديث القرآن عنه ، فقد تحدث القرآن عن اصطفائه ، وأن الله أولاه عناية خاصة ، كما تحدث عن بشريته ، وختمه للرسالات ، ورأفته بأمته وحرصه على نجاتها ، وسعادتها فى الدنيا والآخرة .. إلى غير ذلك من المعانى السامية ، التى تحدث عنها ﷺ بأسلوب واضح لا مجاز فيه ولا مبالغة .

٢- استخدم ﷺ الضمير المنفصل (أنا) وهو مقتضى حديثه عن نفسه ، وفيه رد على الذين ينفرون من هذه الكلمة ، ويعدونها قبيحة ؛ لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [1] ؛ لأنها إنما تقبح إذا امتزجت بالغرور والفخر الذى يؤدى إلى انتقاص لغيره .

٣- استخدم ﷺ الأسلوب الخبرى كثيراً ؛ لأنه أنسب الأساليب للإفصاح عن نفسه ﷺ ، وبيان منزلته عند ربه ، ومكانته بالنسبة لأمته ، وإخوانه من الأنبياء .

٤- استخدم ﷺ الأفعال المبنية للمجهول فى حديثه عما اختصه الله به ، ليسند العطاء لصاحبه وهو الله ، وللدلالة على انفتاح العطاء الإلهى الذى هو أصلاً بلا حدود، كما استخدم ﷺ أساليب القصر التى تفيد اختصاصه بما اختص به .

٥- جاءت ألفاظه ﷺ فى حديثه عن نفسه موحية شأنها شأن البيان النبوى كله ، فهى ألفاظ تفيض بالكثير من المعانى ، حيث أينعت ثمار بلاغته ، واتقدت مصابيح فصاحته ، وأتى بالألفاظ المصورة للمعنى أدق تصوير فى أسلوب موجز ودلالات وافية .

---

(١) النجم من الآية ٣٢ .

٦- استخدم ﷺ بعض الصور البيانية القريبة ، والمنتزعة من البيئة العربية ، والتى بها أظهر المعنوى فى صورة الحسى المشاهد ؛ كى تستقر المعانى فى القلب ، وتثبت فى الوجدان .

٧- رأيناه ﷺ يتبع الألفاظ الغامضة بما يوضح معناها، وهذا نتيجة حسه المرهف ، كما رأينا فى حديثه عن بشريته يأتى بالعديد مما تقتضيه طبيعته البشرية وهو ما يعرف بالمذهب الكلامى .

٨- كشف البحث أنه ﷺ فى سياق حديثه عن صلته بربه كانت عبادته لله تشريعاً لأمته ، وإعلاء لدرجته ، وجاءت هذه المعانى فى صور من التراكيب الموجزة التى توحى بعظمة قائلها .

٩- فى سياق حديثه ﷺ عن صلته بأمته استخدم الكثير من الأساليب والصور البيانية التى تظهر تفانيه فى دعوته ، وحرصه الشديد على نجاة أمته وجلب الخير لها ، وقد نطق القرآن بذلك .

١٠- فى سياق حديثه ﷺ عن مكانته بين الأنبياء استخدم من الألفاظ ، والعبارات والصور ما يكشف عن مقصوده ، وهو أنه مكمّل للرسالات قبله ، وأن رسالة السماء به قد ختمت .

١١- يوصى البحث بتتبع مباحثه فى بحوث مستقلة فهى جديرة بذلك .

وبعد فإن لا أدعى أننى وفيت الموضوع حقه ، فهذه أمنية بعيدة المنال ، لكننى حاولت الاقتراب من الهدف وفق ما قدر لى ، ويحدونى الأمل أن يستمتع به القارئ ، ويسعد به السامع ، ويتلطف بى الناقد ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

فهرس المصادر والمراجع

١- الإيضاح للخطيب القزوينى ، تح/ خفاجى ، ط ثالثة ، دار الجيل – بيروت.

٢- البداية والنهاية لابن كثير ، ط دار الفكر العربى .

٣- البرهان للزركشى ، تح/ محمد أبو الفضل ، مكتبة درا التراث - القاهرة .

٤- البيان والتعريف للدمشقى ، تح/ الحسينى هاشم ، مطبعة حسان - القاهرة .

٥- تاريخ الطبرى ، تح/ محمد أبو الفضل ، ط رابعة دار المعارف .

٦- تحرير التحبير لابن أبى الأصبع ، تح/ شرف ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

٧- تفسير أبى السعود ، ط ثانية ١٩٩٠م ، دار إحياء التراث العربى – بيروت .

٨- الجامع الصحيح للترمذى ، تح/ إبراهيم عطوة ط دار الحديث .

٩- الجنى الدانى للمرادى ، تح/ قباوة ، ط دار الكتب العلمية ، بيروت .

١٠- حاشية محى الدين شيخ زادة على تفسير البيضاوى ، ط دار الكتب العلمية .

١١- الخصائص البلاغية واللغوية لفتحية العقدة ، ط ١٤١٤هـ ، الأمانة .

١٢- الخصائص الفنية فى الأدب النبوى . د/ محمد الدبل ، مكتبة العبيكان

١٣- الدر المنثور للسيوطى ، ط دار المعرفة – بيروت – لبنان .

١٤- الرسول لمحات من حياته لعبد الحليم محمود ، ط دار الهلال .

١٥- سنن الدرامى ، ط دار إحياء السنة المحمدية .

١٦- سنن أبى داود ، ط ثانية ١٩٨٣م ، مطبعة الحلبى .

١٧- سنن ابن ماجة ، تح/ فؤاد عبد الباقى ، ط دار إحياء التراث .

١٨- شروح التلخيص ، ط دار السرور ، بيروت – لبنان .

١٩- الشفا للقاضى عياض ، ط ١٢٨٧هـ بريلى ، الهند ، المطبع الصديقى .

٢٠- صحيح البخارى ، ط دار التقوى للتراث .
٢١- صحيح مسلم ، ط دار الكتب العلمية ، وبشرح النووى ، ط دار إحياء التراث .
٢٢- الصيام للفريابى، تح/ عبد الوكيل رياض ، ط الدار السلفية ، الهند ١٤١٢هـ .
٢٣- عمدة القارئ للعينى ، ط أولى ١٣٩٢هـ الحلبى .
٢٤- فتح البارى لابن حجر ، تح/ فؤاد عبد الباقى ، ط دار الريان .
٢٥- الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى ، ط١٩٩٤م ، مكتبة القدسى .
٢٦- فيض القدير للمناوى ، ط دار الحديث – القاهرة .
٢٧- الكتاب لسيبويه ، تح/ عبد السلام هارون ، ط مكتبة الخانجى .
٢٨- كتاب أسرار البلاغة للشيخ/ عبد القاهر ، تح/ شاكر ، ط المدنى .
٢٩- كتاب دلائل الإعجاز للشيخ/ عبد القاهر ، تح/ شاكر ، ط المدنى .
٣٠- الكشاف للزمخشرى ، ط دار عالم المعرفة .
٣١- كنز العمال للهندى ، تح/ بكرى حيانى وآخرين ، مؤسسة الرسالة – بيروت .
٣٢- لسان العرب لابن منظور ، ط دار إحياء التراث العربى – بيروت .
٣٣- لطائف المعارف لابن رجب ، تح/ البارودى، ط المكتبة التوفيقية – القاهرة .
٣٤- محمد رسول الله للصادق عرجون ط ثانية ١٤١٥هـ دار القلم دمشق .
٣٥- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ط دار الفكر .
٣٦- المطالب العالية لابن حجر ، تح/ الأعظمى ، المطبعة العصرية بالكويت .
٣٧- المعجم الكبير للطبرانى ، تح/ حمدى السلفى ، ط الأمانة ، بغداد .
٣٨- مفتاح العلوم للسكاكى ، تح/ هنداوى ، ط دار الكتب العلمية – بيروت .